إهـداء

إلى كَوني الذي تجسَّد بهيئة أنثى .. و سعادتي التي اختارت أن تتشكّل بروحٍ إنسانية لتعيش و تمشي بجانبي فوق ثرى هذه الأرض

_ *حبيبكِ مهيار*

لم تأتِ

قلتُ و لن

إذاً

سأعيدُ ترتيب المساءِ

بما يليقُ بخيبتي و غيابها ...

_ محمود درويش

١

لا تقع في الحب سوف يجعلك شخصًا تافهًا ولا تبقى وحيدًا سوف يُصيبك الألم ولا تسألني عن الحل.

_ دوستويفسكي

في ليلة ليلاء تحت ظلمة سماء نيويورك و وسط نسمات صيفية دافئة تهبُّ في نهاية صيف حار .. دلف ناتان حانة صغيرة تعج باليائسين الذين يشربون نبيذهم لينسوا همومهم اليومية و مخاوفهم المستقبلية (هذا إن كان لهم مستقبل) ، تقدَّم ناتان مارَّاً من بينهم و رفع بصره ليرى نادلاً يأخذ طلبات رجلين من طاولة كانت على يمينه و بجانبهم طاولة يجلس أمامها رجل نحيل يضع رأسه بين ذراعيه الممدودتين على الطاولة و بجانبه زجاجة خمرٍ فارغة و كأساً مسكوباً تمتد منه خيوط خمر تنتهي إلى حافة الطاولة التي تقطر منها

و أما على يساره فكان رجلٌ شارد الذهن مطأطأ الرأس بمعطف أسود رغم دفء الطقس تبدو عليه ملامح الندم (يبدو أن زوجته طردته من المنزل) و من ثم نظر إلى زاوية الحانة فرأى صديقه ديفيد كاميرون يجلس أمام طاولة مكتوف الأيدي بوجه نصف نائم

مشى نحوه و جلس على الكرسي الموعضوع أمام الطاولة ثم طلب كأساً من الماء و رشّه في وجه صاحبه

_ اووه ... ماذا بك يا رجل .. لماذا رششت ماءك في وجهي

_ آسف .. وقع مني بالخطأ

_ انتبه لنفسك و لأخطائك

أخذ ديفيد منديلاً و جفّف وجهه ثم نظر لناتان و سأله مستغرباً :

_ ما الذي جاء بك إلى هنا .. أنت لا تحب الشرب و أجواء الحانات

_ شعرتُ أنني يجب أن أشرب الليلة .. فتذكرت أن هذه الحانة حانتك المفضلة و هذه الطاولة مكانك الليلي الدائم

تقدّم النادل إليهما :

_ ماذا تريدان يا سيدي

_ كأسيّ خمر كبيرتين

صاح ديفيد

_ كأسين فقط !!!

_ ماذا ؟ ، لم أفهم مقصدك

_ أحضر زجاجتي خمر كبيرتين ، لقد أخطأ صاحبي

انصرف النادل و نظر ناتان لديفيد نظرة ذهول :

_ زجاجتي خمر !!!!

_ أنت لست معتاداً على الشرب لهذا لا تعلم كم يجب أن تطلب

_ لأنني لست معتاداً هذا أكبر سبب يمنعني من إكثار الشرب

_ ما بالك يا ناتان .. ألأنك تقرأ كثيراً من الكتب لن تصبح سكّيراً ؟

أشاح ناتان بوجهه ليرى النادل قد جاء و وضع أمامه زجاجتي خمر كبيرتين

قال ديفيد و هو يتناول واحدة منهما و يفتحها :

_ في العادة .. أشتهي أن أشرب عندما يكون هناك ما يؤرقني ، فما الذي يؤرقك ؟

_ لا أعلم .. و لكن أشعر أن حياتي فارغة أو أنها بلا معنى ... أستيقظ صباحاً و أذهب إلى الشركة .. أنهي عملي و أعود مساءاً و آكل ما يشبعني ثم أكمل عملي و أنام .. حتى الكتب لم أعد أستطيع قراءتها بسبب الجبل العظيم من المستندات اليومية التي تحتاج إلى عمل

_ اممم .. بما أنني أعمل معك في الشركة فأنا أوافقك الرأي .. حالي مثل حالك ..

بعد أن شرب الرجلان خرجا من الحانة يمشيان تحت ضوء القمر بجانب نهر عريض على يمينهما

_ هل تعلم يا ناتان

_ ماذا

_ يبدو أن صديقك ديفيد قد وقع بالحب

ضحك ناتان و همهم بصوت مسموع :

_ إذاً سأدعو لك أن تحبك بجنون

_ و لكن ...

_ و لكن ماذا

_ لا أستطيع أن أتكلم أو ان أراسلها

_ لمَ ؟

_ لأنني خائف من وضع نفسي في موقف محرج و أكون محط سخرية

_ امممم ... خوفك في محله

وقفا و استندا على سياج النهر

فهمهم ديفيد متردداً :

_ حسناً .. ما رأيك أن...

_ ما رأي بماذا

_ ما رأيك بما أنك أشجع منّي و لديك من الجرأة ما يُمكّنك من التكلم مع النساء دون خجل أو توتر أن تصادقها لفترة من الزمن و تجمّل صورتي في عينيها و تجعلها تقع في حبّي عن طريق عدة مواقف مُدبَّرة

صمت ناتان لهنيهة مفكِّراً ، ثم أدار وجهه و نظر إلى وجه صاحبه و رأى عينيه المتوترتين .. فأخذ من جيبه ولّاعة و أشعل بها سيجارة كان قد وضعها بين شفتيه

فقال بعد أن أشاح وجهه إلى النهر و نفث الدخان من فمه :

_ حسناً .. مع أن طلبك صعب و لكن لأنك صديقي سأفعل

ابتسم ديفيد و أخذ يراقب مياه النهر المتدفقة و يأمل بنجاح فكرته

***

فندق ريدمان

الغرفة 55

الساعة 2 ظهراً

كان ناتان يمارس الرياضة بسرواله القصير الأسود و جذعه العلوي العاري حين رنَّ هاتفه من آخر الغرفة

مشى باتجاهه و التقطه من على الطاولة

قرأ اسم المتصل

و إذ هو (ديفيد كاميرون)

أجاب على الاتصال :

_ أهلاً ديفيد

_ مرحباً ناتان ، أرسلتُ لك بياناتها الشخصية التي طلبتها

_ إذاً سأغلق للاتصال لأقرأ رسالتك النصية

_ لا بأس .. بالتوفيق في مهمتك

أغلق ناتان الخط و فتحَ قسم الرسائل الواردة:

_ أولاً : اسمها كريستينا ريتشي في ربيعها الخامس و العشرين و تعمل كممرضة في مستشفى سانت دويل

أما بالنسبة للتفاصيل الباقية فلا فائدة منها

هزَّ ناتان رأسه و قال في نفسه :

_ سأبدأ اليوم هذه اللعبة

***

في الحقيقة كان ناتان متردداً من هذا الأمر ، كيف له أن يجعل فتاةً لا يعرف عنها شيئاً تحبُّ إنساناً لا تعرف عنه شيئاً

و الأصعب من هذا كيف سيبدأ حديثه معها و هما لا يعرفان بعضهما البتّة !

فكَّر باتّباع طريقة كلاسيكية كأن يدعوها للعشاء أو أن يقدّم له باقة من الورد .. لكنه لا يحب هذا النوع من طرق التعارف . فما آله تفكيره ألا أن يبدأ معها بدعوة للحديث

بحثَ عن موقع المستشفى ، فوجد موقعه في القسم الشمالي من نيويورك ...

في الساعة الرابعة عصراً

يقود ناتان سيارته الجِيب جراند ذات اللون الأبيض ، تحت شمس تتوسط السماء الصافية و شعاعها المتوهج يسطع على زجاج السيارة الأمامي

وصل أخيراً إلى المشفى الذي تعمل فيه كريستينا بعد جهد قليل

ترجّل من السيارة بعد أن ركنها في الأماكن المخصصة لركن السيارات

طالعَ المشفى ، فإذا به يراه مشفىً بحجمٍ متوسط يتألف من عدة طوابق و أعلاه أحرفٌ كبيرة حمراء تُشكِّلُ عبارة (مشفى سانت دويل) بجانبها الإشارة المشهورة للإسعافات الطبية

صعدَ الدرجات السبع الموجودة أمام مدخل المشفى ، دلف إليه و مشى خلال قاعة مكتظة بالممرضين و بعض الأشخاص الذين يرتدون ملابساً تميّزهم عن باقي العمّال في المشفى ، يبدو أنهم الأطباء ... تقدّم حتى وصل إلى المضيفة :

_ عذراً

_ أهلاً ، كيف أساعدك

_ أريد أن أسأل عن شخص يعمل هنا

_ حسناً تفضل ، من هو ؟

_ كريستينا ريتشي ، قيل لي أنها تعمل ممرضة هنا

_ اوه ، نعم .. كريستينا هي الآن في الطابق العلوي عند أحد المرضى ... يمكنك أن تصعد و تبحث عنها

_ حسناً .. شكرا لكِ

تقدّم ناتان إلى المصعد و لكنه وجده قيد الصيانة ، فاضطر استعمال الدرج

و بينما هو مستغرق في تفكيره (كيف له أن يبدأ الحديث معها)

رأى فتاةً ذات شعر أشقر و بشرة بيضاء ترتدي زيّ أبيض مائل إلى الزرقة و تحمل صندوق الاسعافات الأولية في يدها اليسرى

اقتربت منه و هي تنزل من على الدرجات

و عندما أمعن النظر قرأ اسمها على البطاقة التعريفية الموضوعة على صدرها

_ كريستينا ريتشي !!

وقف متردداً و متوتراً لأنها ظهرت أمامه فجأة

_ مرحباً ، هل ... هل أنتِ ممرضة ؟

توقفت كريستينا و بادلته الكلام :

_ نعم أنا ممرضة ، هل أنت مريض ، مماذا تُعاني ؟

لم يعلم بماذا عليه أن يجيب فليس لديه سبب وجيه ليتكلم معها

_ في الحقيقة أشعر منذ أيام بألمٍ في الرأس

_ حسناً ، أرى أنك يجب أن تزور طبيباً للعيون لعل الخطب في عينيك ، لأن أمراض العين ينتج عنها آلامٌ طويلة في الرأس

_ أوه .. أنا ... في الواقع ... أنا

وقفت الممرضة مستغربة من توتره

_ أنت ماذا ؟؟؟

_ أريد في الحقيقة أن أتكلم معك بأمر ما

_ ما هو الأمر ؟

_ لا أستطيع الحديث هنا ، متى ينتهي وقت عملك ؟

تمهَّلت الممرضة في الرد ، وقفتْ تفكر هل من الصواب أن تعطي غريباً موعداً ليكلمها ؟

_ حسناً ، ينتهي عملي في الثامنة مساءاً

_ إذاً سأنتظركِ في الخارج الساعة الثامنة

هزَّت رأسها إيجاباً و انصرفتْ

خرج ناتان من المشفى و هو لا يصدّق نفسه أنه استطاع الاتفاق على موعدٍ معها.. ظن للحظة أنه سيفشل . و لكن يبدو أن الحظ قد وقف معه هذه المرة

.. كثيراً من الأوقات و اللحظات نكون على وشك القيام بأمرٍ ما و لكننا في الثوان الأخيرة نتراجع . ظنّاً منّا أن الفشل سيكون مصيرنا.. و لكن لو فكّرنا قليلاً ، ربما الفشل محبطٌ في أكثر الأحيان و لكن أيضاً طعم النجاح ألذّ لو نجحنا في أمر كنّا نخاف فعله

لذا أظن أن علينا المحاولة مهما كانت نسبة الفشل مرتفعة .. ربما تهزمُ النسبة المرتفعة هذه بقليل من الإصرار !!

أذكر أن نيكولا تسلا نجحَ بعد ليالٍ عديدة من السهر و الإصرار باختراع أول مصباحٍ كهربائي ، و لكن جاء توماس اديسون و سرق اختراعه منه و نسبه لنفسه .. لهذا بعد التفكير مرة أخرى أنصحك بعدم المحاولة لأنك و إن نجحتَ سيسرقكك الناس .. لهذا ... لا تـــحـاول

فقط اجلس في المنزل على أريكتك و شاهد التلفاز .

***

الساعة 7 و 59 دقيقة

ناتان في سيارته

أمام مستشفى سانت دويل

يجلس ناتان خلف المقود غارقاً في التفكير ... يا ترى ماذا سأقول لها ، كيف سأبدأ حديثي معها و كيف لي أن أطيل الحديث و أُكوِّن صداقة بيننا

في الحقيقة الأمر حقاً صعب ، كيف ستكوّن صداقة مع شخص لا تعلم و لا يعلم عنك شيئاً و تريان بعضكما للمرة الأولى ، و كيف لك جعله يقع في حب شخص لا يعلم عنه شيئاً

الأمر مُعقَّد فعلاً ....

من بعيد رآها مُتَّجهة إلى سيارته بعد أن وقفتْ و بحثتْ بناظريْها عنه

كانت ترتدي معطفاً أسوداً رقيقاً لأن الجو بدأ يصبح بارداً

وقفتْ أمام السيارة ففتح لها الباب :

_ اصعدي

وقفت و قد ترددت بعض الشيء

_ لا عليكِ ، لن أؤذيكِ لست من هذا النوع

_ حـــ حسناً

صعدتْ السيارة بجانب مقعد السائق و سادت لحظة من الصمت

_ حسناً ، ربما لا تعرفين مَن أكون ، سأعرِّف عن نفسي أولاً .. أنا ناتان كارتر

في ربيعي الثلاثين و أعمل في شركة سوبر كار لتصنيع السيارات

_ تشرفنا ، أنا كريستينا ريتشي في ربيعي الخامس و العشرين و أعمل كما رأيتَ في هذا المشفى

_ هل لديكِ عائلة

_ لا .. عائلتي تعيش في كندا

_ اممم ، حسناً ... ما رأيك أن نذهب لمطعم أو كافيه

_ ألا يمكنك إخباري الموضوع الذي تريد الحديث عنه الآن

_ أرى أنكِ متعجلة كثيراً و ليس لديك من الصبر ما يكفي

_ معكَ حق لذا أخبرني الآن

أخذ علبة سجائره من جيب معطفه و سحب سيجارة بشفتيه و من ثم التقط الولاعة الموضوعة بجانبه و أشعلها و نفث بعضاً من دخانها و قال بعد برهة

_ ما رأيكِ أن نصبح أصدقاء ؟

الصباح التالي

الساعة السابعة صباحاً ... في شقة ناتان ... كان هناك صدى رنين منبه يتردد بالأرجاء .. بين الغرف ... وضع ناتان رأسه تحت وسادته محاولاً أن يتخلص من إزعاج منبهه

_ يا إلهي .. يالني من أحمق ، أنا الذي أجعل نفسي أمر بهذا في كل صباح

قفز من سريره و أطفأ المنبه الذي وضعه بعيداً عنه

و استحمَّ ثم شرب قهوته الصباحية و نزل من شقته إلى الطابق الاول من الفندق ثم خرج بعد أن ألقى التحية على مُوظف الاستقبال

ركبَ سيارته و قادَ حتى وصل إلى شركة سوبر كار (حيث يعمل مع صديقه) كان مبنى الشركة حديثاً مغطى غالبه بالزجاج و فيه قرابة العشر طوابق .. كانت شركة كبيرة و عريضة في ذات الوقت و ضوء الشمس كان يسطع على زجاجها ليجعلها تبدو تحفة فنية كأنها لوحة من لوحات أحد الفنّانين العالميين ، صعد عدّة درجات حتى وصل إلى باب الشركة الذي يفتح آلياً

دلف إلى الشركة و اتّجه إلى المصعد و ضغط على زر الطابق السادس و أخذ يفكر ريثما يصل

_ أشعر أن حياتي نوعاً ما فارغة و بلا معنى ، ليس لدي زوجة أو حبيبة و لا عائلة و لا وقت لأشغل به نفسي بأشياء أهواها ، يا ترى هل ستمضي حياتي هكذا دون معنى ، هل سأعمل و أتزوج و أنجب أطفالاً و أشيب بعد أن أربّيهم و من ثم أموت ؟ .. هل حقّاً بهذه البساطة ؟!

و المضحك في الأمر أنني الآن أحاول جمع حبيبين بينما أنا عازب تافه

فُتح باب المصعد مُعلناً عن وصوله ، فخرج منه و عبرَ الممر المليء بالمكاتب على يساره و من ثم وصل إلى مكتبه الذي دلف إليه و جلس خلف طاولته على كرسيّه

اتصلَ بكرستينا

_ ناتان ؟

_ مرحبا كرستينا .. اليوم موعدنا على الثامنة أليس كذلك ؟

_ نعم .. كما اتفقنا البارحة

_ حسناً .. حسناً ، أراكِ قريباً

أغلق الاتصال و وضع هاتفه في جيب سترته

دلفَ إليه بعد ساعتين ديفيد يحمل فنجانَيْ قهوة ساخنة .. وضع فنجاناً أمام صديقه و بقي ممسكاً بالآخر و جلس على الأريكة الجلدية بنيّة اللون

_ ما الذي حصل معك بالأمس .. بالنسبة لـكريستينا

وضع ناتان ساقه اليمنى على اليسرى و ردَّ قائلاً :

_ طلبتُ منها أن تصبح صديقتي ، و لكن بطبيعة الحال توترت بالإجابة فهي كما تعلم لا تعرفني و قد أكون في ظنها أريد أذيَّتها

و لكن بعد أن تحدثنا قليلاً و تبادلنا الحديث زال الجو المشحون بالتوتر و الريبة و قَبِلتْ عرض صداقتي

_ يبدو أن الأمور تسير لصالحنا

_ نعم ، لا بأس بها إلى الآن .. اليوم سأقابلها مجدداً

_ مع أني أشعر بالغيرة منك لأنك تقابلها و تحادثها و لكن سأقول "بالتوفيق" لأني على أمل أنك مَن ستجمع بيننا

_ مع السلامة يا جورج

قالها ناتان لموظف الاستقبال و هو يمشي مسرعاً ليخرج من مبنى الشركة

اتجه إلى سيارته ، قادَ بتهور حتى وصل إلى المستشفى على الساعة الثامنة تماماً

في الحقيقة .. الأحداث سريعة جداً و الثواني في هذه الرواية تتسابق لأني لا أحبّ التفاصيل الدقيقة لكل ما يحدث .. لا أحب أن أخبرك عن كل نَفَس يتنفسه البطل أو عن كل فكرة تدور في رأسه .. فضوليتك الزائدة هذه تخلّص منها ، ألم تفكر من قبل أنك تحشر أنفك دائماً في خصوصيات شخصيات الرواية لدرجة أنك تعرفهم أكثر من أنفسهم .. تسمعُ ما يدور في ذهنهم و ما يُخططون لفعله مستقبلاً . عليك أن تتابع الأحداث من الخارج .. من بعيد .. إلزم حدودك فأنت كما تعلم ضيفٌ غير مرغوب به في هذه القصة

بعد نصف ساعة ..

لمَ تأخرتْ .. ألن تأتِ ؟

و بينما يحادث نفسه ظهر طيفٌ يمشي باتجاهه وسط ظلام الليل

_ يبدو أنها قد جاءت

وصلتْ إليه و نظرت عبر زجاج النافذة متفحصةً إذا ما كان في الداخل

فأنزلَ ناتان زجاج السيارة

_ لماذا تأخرتِ .. لقد وصلتُ إلى هنا في الثامنة

قالت و هي تفتح الباب و تهمُّ بالركوب

_ آسفة ، و لكن كان لدينا حالة مريضٍ طارئة

_ حسناً ، لا بأس .. حياة الناس أهم من موعدنا

فتحتْ حقيبتها و أخرجت هاتفها و بدأتْ تُحادث شخصاً ما

_ مَن تُحادثين .. حبيبٌ أم صديق

_ لا هذا و لا ذاك .. إنها أمي ، فهي تسكن في كندا

_ و لماذا لا تأتي للسكن معك

_ أمي عاشت هناك طفولتها لذا هي متعلقة جداً بدولتها

_حسناً ، ألديكِ حبيبٌ إذاً ؟

_ لا لم أقابل الشخص المناسب بعد

_ في الحقيقة لديّ صديقٌ أريد أن أُعرّفكِ عليه .. فأظن أن صداقتنا ستصبح أجمل بوجوده

_ اممم . حسناً ، من هو ؟

_ اسمه ديفيد كاميرون و يعمل معي في شركتي و نحن مقربيْن جداً كما أنه غنيٌّ فقد ورثَ عن والده ثروة ضخمة

_ إن كان جيداً كما تقول فلا بأس بأن تُحضره

_ سأتصل به إذا أردتِ

_ الآن ؟

_ نعم و لمَ لا ، خير الأمور عاجلها

_ لا بأس اتصل إذاً

أخذ هاتفه و اتصل بديفيد

_ أهلا ديفيد .. هل أنت مشغول الآن ... سأعرّفك على صديق

طبعاً انطلق صديقنا هذا بسرعة الضوء إليهم .. لم يركب سيارته و لا دراجته النارية . لقد نسيهما من حماسه .. لا أعلم سر الطاقة الكبيرة التي تظهر فجأة عندما تسمع اسم ذلك الشخص الذي تذكرته الآن .. و لكن بالفعل أنها طاقة إعجازية

هتف ناتان

ها هو قد وصل

لاحَ ديفيد من بعيد و هو يقترب منهم مسرعاً

همهم في نفسه (جاء عاشقنا)

فتح باب السيارة و جلس في المقعد الخلفي

_ مرحباً

_ أهلا ديفيد

أشار ناتان لكريستينا

_ هذه كريستينا ريتشي صديقتنا الجديدة

نفخ صدره فرحاً و مدَّ يده ليصافحها و هو يقول

_ تشرّفت بمعرفتكِ ، أنا ديفيد كاميرون

صافحته هي الأخرى مع ابتسامة صغيرة

_ أهلاً ، سعيدة برؤيتك

و بعد أن تبادلنا أحاديث غير مهمة خرجتُ من السيارة متعذّراً بأني سأذهب لأشتري علبة سجائر ، في الحقيقة كانت نيّتي هي تركهم سوية لينجح ديفيد بجعلها تبادله المشاعر

_ هل لديكِ حبيب

_ ليس بعد

_ حسناً ، هل من الممكن أن تعطيني رقم هاتفكِ بما أننا أصدقاءٌ الآن

_ بالطبع .. لا مشكلة

أخرجتْ هاتفها و بدأتْ بقراءة رقمها بصوت مرتفع بينما هو يسجله

في الواقع ، بدأتْ كريستينا تشعر بالراحة بوجودها مع هذين الاثنين ... لم تعد تشعر بالريبة منهما أو بالخطر فقد علمتْ أنهما طيّبا القلب و بدتْ تميل بالمحبة لناتان أكثر من ديفيد

٢

كرمح مرتد لصاحبه

يعود الحب إليّ من أيامي الخوالي و من شدة عشقنا

مجنونين كنا لا نبالي

_ سيرج غانسبورغ

بعد عدة ساعات

عاد ناتان لشقته ، خلع عنه معطفه و رماه على الكرسي و ارتمى على سريره بعد أن بدَّل ثيابه

_ كان يوماً متعباً ، من الصعب جمع شخصين في علاقة غرامية

و فجأة بدأت الدموع تنهمر من عينيه ، فتح الدرج الذي بجانبه و أخرج صورة و بدأ يطالعها ، كانت صورة لحبيبته جيسي ...

قبل بضع سنوات

كان هناك طفل و طفلة يجلسان بجانب بعضهما البعض قربَ شجرة في حديقة المنزل

_ جيسي

التفتت إليه و هي تنظر إلى وجهه المتسائل و قالت :

_ ماذا ؟

نظر إلى عينيها الناعستين و أردف :

_ في الحقيقة هناك تساؤل يؤرّقني و لا أجد له إجابة

_ و ما هو ؟

وضع يديه خلف رأسه و قال متسائلاً :

_ لماذا كلّما اقتربت منكِ او اقتربتِ مني أو تكلمتِ معي ينبض قلبي بسرعة و أشعر بشعور غريب و يضيق تنفسي قليلاً

_ اممم ، أظن أن عليك زيارة الطبيب

_ و أنا أيضا اعتقدتُ ذلك ، أخشى أن يكون مرضٌ خطير قد أصابني ....

(نعم هو خطيرٌ هذا المرض ... خطيرٌ جداً .. أحذركَ من الآن منه ، لأني الكاتب و أعلم العواقب ....)

كانت جيسي قريبة جداً من ناتان .. تقريباً لا ينامان إلا بعد أن يتصلا ببعضهما أو يزور أحدهما الآخر .. تعلّقا ببعضهما منذ الطفولة و ينمو عنصر الخب ببنهما من السنوات العشر الأولى في حياتهما

بعد سبع سنوات

كان ناتان عائداً مع جيسي من الجامعة

حرّك ناتان شفتيه وقال ناطقاً :

_ ما رأيكِ أن تأتي لمنزلي اليوم ، أمي ستعدّ الكعك بما أنك تحبينه

أجابته كريستينا فرحة مثل طفلة تتوق لبعض الحلوى :

_ بالتأكيد ، سآتي الآن معك و لكن عليّ أن أتصل بأمي بعد أن أصل

و بعد وصولهم للمنزل رمى ناتان كتبه على الطاولة و جلس على كرسي أمام جيسي و قال بعد تردد :

_ هل تذكرين السؤال الذي سألتكِ إياه قبل سبع سنوات

أطرقتْ جيسي تفكر

فأردف بعد صمت قد طال منها:

_ أظن أنكِ لا تذكرين ، حسناً سأساعدكِ ... السؤال الذي سألتكِ إياه تحت تلك الشجرة في حديقتنا

قالت كريستينا مُميلةً رأسها بوجهٍ يحاول استرجاع أرشيف الذكريات القديمة :

_ أظن أني تذكرته .. لقد شكوتَ كثيراً من تلك الحالة التي كانت تصيبك ، و لكنك لم تذهب إلى الطبيب في ذلك الوقت _ قفزت فجأة من مكانها بعد أن صمتت قليلاً _ انتظر انتظر هل ما زلت تعاني من ضيق التنفس و زيادة ضربات القلب ... هل من المعقول أنه لديك مرض في القلب أو الرئتين ؟!

_ توقفي اهدئي ، لقد علمتُ مرضي

_ و ما هو ؟ ، كيف ستعالجه ، هل هو خطير ؟

_ نهض ناتان من مكانه و وقف أمام جيسي و جذبها إليه بقوة و راح يضمُّها

_ أحبُّكِ

_ .....

_ أحبُّكِ ، هذا مرضي و لا أريد أن أُشفى منه

_ .....

_ أحبُّكِ أكثر في كل مرة أرنو إليكِ ، أحبُّكِ في كل ابتسامة ترتسم على شفتيكِ ، أحبُّك في كل حركة تصدر من يديكِ ، أحبُّكِ بكل مرة يحمرُّ فيها خدَّيكِ .. أحبُّكِ حتى تذوب الشمس و ينصهر القمر .. و تفنى الكواكب و يموت البشر .. أحبُّكِ حتى تتبخر السماء و تثور الأرض .. و تثور البحار و تتفجّر النجوم

فضمَّته هي الأخرى و بدأتْ تزيد من قوة العناق رويداً رويداً

و قالت بتوتر ظاهر في صوتها و حركة جسدها

_ و أنا أحبُّكَ أيضاً

بعد شهر

دخل ناتان قاعة الطعام في الجامعة و إذا به يسمع صوت صراخ ، فلاحَ بنظره لجهة الصوت فرأى شخصاً أخذ من جيسي كتبها و رماها أرضاً ، و بدأ يصرخ عليها

_ ألا ترين أمامكِ ، هل تعلمين كم ثمن هذا القميص ..

قالت باكية

_ لم أقصد إيقاع الطعام عليك

فدفعها أرضاً و سقطت فاجتمع الطلاب حولها حشداً يشاهدون

و في هذه اللحظة جُنَّ جنون ناتان فاندفع بسرعة صارخاً بصوت فزع الطلاب من شدته :

_ سأمزّقكَ أيها الحثالة

تجمّد الشاب بمكانه عندها تلقّى لكمة على وجهه جعلت أنفه ينزف ، فسقط أرضاً بعد أن دفعه ناتان و بدأ يضربه بوحشية حتى أدمى وجهه

حاول الطلاب إبعاده عنه بالقوة و انتفضت جيسي تحاول تهدأته و لكنه كان كالمجنون يتشبث بالشاب و يضربه بقوة أكبر

و بعد محاولاتٍ كثيرة نجحوا بإبعاده عنه

فأمسك ناتان جيسي من كتفيها و هو يقول بقلق

_ هل أنتِ بخير ؟

هزَّت جيسي برأسها مع ابتسامة صغيرة على شفتيها

فأدار ناتان وجهه إلى الشاب الملقى على الأرض و صاح قائلاً :

_ أقسم أني سأقتلك إن اقتربت منها مرة أخرى

و أمسك بيد جيسي و مشى معها بعيداً

كان ناتان يحب جيسي حبّاً جمَّاً و هي كذلك كانت تبادله الشعور ذاته

حيث أنهما لا يجلسان في محاضرات الجامعة إلا جنباً إلى جنب ، و يعتنيان ببعضهما اعتناء الأم بأولادها .. حتى عندما يتشاجران يبتعدان عن بعضهما فترة قصيرة و يعودان كما كانا سابقاً مهما كان حجم المشكلة ، و في إحدى المرات عندما مات والد جيسي بقيَ ناتان معها طوال اليوم حتى أنه

في الليل نام في بيتها ليعتني بها لأنها كانت منهارة بالكامل ، و في منتصف الليل استيقظ من نومه على صوت أنينها ، اقترب منها و ضمّها إليه قائلاً بصوت مُطَمئن

_ حبيبتي جيسي ، أعدكِ أنني سأبقى معكِ و سأحبّكِ وحدكِ حتى الموت

و لن أتوقف ثانية واحدة عن عشقي هذا حتى تسكن أنفاسي

فمدَّ يده رافعاً إصبعه الصغير

_ أعدكِ أنني لن أحبَّ غيركِ مهما حصل

فمدت إصبعها الصغير و عانقتْ بها إصبعه

....

بقيا سويةً لسنتين على هذه الحال إلى أن جاء ذلك اليوم ....

نيويورك

الساعة الواحدة ظهراً

المطر يهطل مدراراً من سماء نيويورك ، تتناقل الصحف الأخبار عن هذه العاصفة القوية التي ليس لها مثيل منذ مئتي عام

كان ناتان يجلس في غرفته في الطابق العلوي ممسكاً بهاتفه ليتصل بجيسي

كانت جيسي تشتري بعض الأغراض لوالدتها من السوبر ماركت و بعد أن انتهت خرجت من المكان و ركبت سيارتها

_ يا إلهي ما هذا اليوم ، المطر لا يتوقف أبداً و الضباب يغطي كل شيء حرفياً

و بينما كانت تسير بسيارتها على الطريق السريع رنَّ هاتفها ، فالتقطته و أجابت :

_ ناتان

_ أين أنتِ جيسي ؟

_ أنا أقود إلى المنزل

_ اليوم قد حسمتُ أمري

ضحكت جيسي على حماسه

_ على ماذا حسمتَ أمرك

_ اليوم هو يومنا ، سأطلب يدكِ في حفلةٍ دعوتُ إليها كل أقاربنا و اصدقاءنا و عائلتينا

ردَّت جيسي مصدومة و سعيدة

_ أنا متحمسسة جداً ، ماذا يجب أن أرتدي اليوم يا عزيزي

_ لا ترتدي شيئاً ، تعالي إلى منزلي بملابس عادية قبل ساعة من الحفلة فقد اشتريتُ لكِ فستاناً جميلاً جداً

_ أحبُّكَ أيها المجنووون

_ و أنا أيضاً يا زوجتي

ضحكتْ جيسي و قالت

_ من الآن ؟ ، من الآن تناديني بزو....

بينما كانت تنطق بكلماتها ، ظهرت أمامها فجأة من بين سحب الضباب الكثيف سيارة مسرعة

راح ناتان يصيح عبر الهاتف كالمجنون بعد أن سمعَ جلبة السيارات و صوت اصطدام :

_ الو .... الو ... جيسي .. ماذا حصل

... عزيزتي أينَ أنتِ ... جيسي ... جيسيي ... الو .... جيسيييييي

و بقي صدى صوته يتردد بين خيوط المستقبل و الماضي... لقد ذهب حلم سنين في هذه اللحظات القليلة .. بسبب مجرد خطأ بسيط فقدَ شخصٌ حياته و أما الآخر تدمرت في عينيه

حقاً ما أصعب الفراق .. لا أقصد ذلك الفراق الذي ينهي قصة حب كاذبة و مزيفة بين المراهقين الطائشين .. بل أقصد ذلك الفراق الذي يكون رغماً عنّا .. عادة ما يكون إما موتاً أو سفراً . و أقول هنا أنه رغماً عن إرادتنا لأن المحبّين بصدق لا يهجرون بعضهم مهما حصل .. فأرواحهم ارتبطت و تلاحمت و انتهى الأمر .. إذا ما افترقا يحصل كما قيلَ عن لحظة خروج روح الكافر « روح الكافر تتفرق في جسده، فينتزعها – أي ملك الموت – كما يُنْتَزَع السُّفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع منها العروق والعصب » بالضبط هذا ما يحدث أيضاً لأرواح العاشقين البائسين الذين تجبرهم ظروف واقعهم على الفراق .. و بالتأكيد الأهم في هذه الحالة هو (الوفاء) فمن يتزوج منهما غير معشوقه حتى و إن كان مُجبراً فهو خائن بالنسبة لي .. فالمحب يُفضّل الموت على أن يرتبط اسمه باسمٍ غير اسم محبوبه

٣

لا تسمحوا لمجرد يوم جميل أن يشعركم أن لديكم حياة سعيدة .. حياتكم جحيم و ستبقى كذلك

_ دوستويفسكي

نيويورك

الآن

_ الو

_ مرحباً ناتان

_ أهلاً كريستينا

_ أشعر اليوم يا ناتان أنني قد مللتُ من العمل ، ما رأيك أن نذهب مساءً إلى مدينة الألعاب

_ حسناً لا بأس لنقم بذلك بما أنني اليوم ليس لدي الكثير من العمل

_ سأتصل بديفيد أيضاً

_ حسناً ، أراكم في التاسعة عند مقهى كولتر ايسبريسو

أقفل ناتان الخط و جلس على كرسي مكتبه يعمل على أوراق تخصُّ عمله

و عندما خيّم الليل على سماء نيويورك اتجه ديفيد بدراجته النارية إلى المقهى المتفق عليه ، لم يستعمل سيارة لأنها قيد الصيانة بعدما شعر أن المحرك بدأ يتباطئ في التشغيل

وصلَ إلى المقهى ليجد كريستينا هناك بشعرها الأشقر المنسدل على ظهرها و معطف جلديّ أحمر قصير يصل إلى خصرها تقريباً و بنطال جلديّ أسود

همهم ديفيد في نفسه

_ كيف لها أن تزداد جمالاً في كل مرة

التفتت إليه و صاحت :

_ أهلاً ديفيد

_ مرحبا كريستينا ، هل أتى ناتان

_ لا ليس بعد

و بينما كان ديفيد و كريستينا يتحادثان كان ناتان يسير متجهاً نحو سيارته و بعد أن ركبها طرق شخص زجاج نافذته ، فإذا به يرى رجلاً يضع نظارات سوداء ذو عضلات مفتولة و جثة ضخمة

همهم ناتان يُحادث نفسه مرتبكاً :

_ يا إلهي ، مالذي جاء به إلى هنا

أنزل ناتان زجاج النافذة ، فقال ذلك الثور ذو البدلة السوداء بصوت غليظ :

_ ألا تشعر أنك تأخرت كثيراً ؟

أجابه بتوتر ظاهر :

_ سأعطيكم المبلغ كاملاً بحلول الشهر المقبل

_ كفاك خداعاً ، لديك اسبوع واحد و حتى ذلك الحين إن لم تدفع سنسلبُ النور من عينيك

_ و لكن ...

و قبل أن يكمل ناتان ، مشى الرجل بعيداً

أدار مفتاح السيارة و سار بها على الطريق السريع متجهاً إلى رفيقيه

*

قبل اسبوعين

على أطراف نيويورك

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

كان ناتان يجلس مهموماً أمام طاولات إحدى الحانات ، كانت الحانة تعجُّ بالناس

... ذاك يضع رأسه منتشياً على طاولته ممسكاً بيده زجاجة خمر .. و تلك المرأة تدخن حشيشاً .. و هذا و ذاك يتمايلان ثملين .. الحانة مليئة بالمهمومين و المغمومين السكارى

همهم ناتان في نفسه يائساً : حالتي المالية بدأت تسوء و أظن أن الفندق سيطردني بعد يومين لأنه قد سأم منّي بعد أن ماطلتُ كثيراً بالدفع

أمسك زجاجة خمره و بدأ يتجرَّعه .. ضرب زجاجة الخمر بالأرض فكُسِرت و سمح لرأسه أن يسقط على الطاولة

و بينما كان مغمضاً عينيه المرهقتيْن من التفكير ، رفع رأسه على يدٍ كانت تلمسه

_ هيّا قم أيها اليائس

رأى امرأةً بقبّعة حمراء و معطف من فروٍ أحمر .. يبدو أنها من طبقة النبلاء

_ من أنتِ

نظرتْ له بعينيها الحادتيْن

_ ألا تعرفني يا هذا ؟

_ لم أركِ من قبل

جلستْ منزعجة ، ففكَّر ناتان و رفع حاجبيه دهشةً و صاح بها

_ انتظري أظن أنّي قد عرفتكِ !!

نظرتْ له بابتسامة رافعةً أنفها متعالية

فأردفَ بوجهه المتفاجئ :

_ ألستِ جارة جدتي التي سرقت منها مكنستها !!!

صُعِقت المرأة من إجابته الغير متوقعة و صاحت به

_ اصمت ، ما بالك ألا تشاهد التلفاز ، أنا جوكاسا نيرمند من أكبر عارضات الأزياء في نيويورك

_ لا أعرفكِ و لم أسمع عنكِ و لكنني ظننتكِ جارة جدتي التي ..

قاطعته بِحدة :

_ اصمت ، الآن دعني أسألك .. لماذا تبدو مهموماً ؟

_ و ما شأنكِ أنتِ

أشعلتْ جوكاسا سيجارة و نفثتْ منها دخاناً تلاشى من فوره

_ سأعطيك خمسين ألف دولار . هل تكفيك ؟

نظر ناتان إليها بعينين غير مصدقة

_ مـ .. ماذا ؟ .. لماذا تعطيني إياها و أنتِ لا تعرفينني

_ رأيتكَ مهموماً و بحسب خبرتي علمتُ أن هذا الهم لا يأتي إلا من المال .. و لكن انتظر ، سأعتبر هذا دَيْناً سترُدُّه لي بعد فترة

_ حسـ حسناً ، بالطبع سأردّه بأقرب وقتٍ ممكن

اليوم

نيويورك

الساعة 9 و 23 دقيقة

وصل ناتان إلى المقهى .. أشاح بنظره فلم يجد رفيقيه

_ أين هما ، ألم يأتيا ؟

خرج من سيارته و دخل المقهى ليبحث عنهما و لكنه لم يجدهما .. خرج منه و أخرج هاتفه و اتصل بهما و لكن لا إجابة

_ أين ذهبا بحق الجحيم !

******

_ هيا ، دعنا نجرّب

_ حسناً هيا بنا

صعدا العجلة الدوارة و جلسا أمام بعضهما ... نظر ديفيد إلى كريستينا و أطال نظره .. كانت تتأمل منظر نيويورك من مكانها المرتفع

.. رآها ساحرة و قد سحرَتْ قلبه ، أسرَته بالمعنى الحرفي

بدأ يُحادث نفسه :

_ هيا اعترف لها

_ هل أنت مجنون ، كيف ستعترف لها و قد تعرّفتْ عليك منذ بضعة أيام !

_ لا عليك ، ألم تسمع عن الحب من أول نظرة

_ و ما أدراك أنها أحبّتني أصلاً ؟

_ إنها اللحظة المناسبة ، أنتما لوحديكما

_ أنا لا أعلم حتى إذا كانت تحبُّ شاباً آخر

_ ألم تسمع ناتان يا هذا ؟ .. لقد أخبرك أنها غير مرتبطة و لا تحب شاباً بعينه

_ .....

_ هيا إنها فرصتك

نظر لها بتمعّن متوتراً خائفاً و بدأت يداه ترتجفان .. بدأ يقرّب يده من يدها .. بدأ يستجمع شجاعته للنطق بها .. للنطق بتلك الكلمة القصيرة الصعبة .. كادت أن تصل يده إليها ، هي في الطريق .. هيا افعلها .. هيا افعلها .. كان يرددها في نفسه ... فتح فمه و قال بصوت خافت :

_ أحبُّكِ

التفتت إليه تتفرّسه بنظراتها .. ساد صمت رهيب ... قال في نفسه متذمّراً :

_ ماذا سأفعل ، هل سيتم رفضي .. لقد أوقعتُ نفسي في ورطة .. هذا ليس الوقت المناسب .. يالي من غبي أحمق .. يالي من غبي

بَدَتْ تعاليم وجهه مرتعبة متوترة

فتحتْ فمها و همَّت بالنطق .. بَدَت اللحظة في عينيه بطيئة جداً ، إنها لحظة حاسمة ، لحظة فاصلة .. هل سترفضني .. هل سأعيش ما بقي من حياتي تعيساً .. هل سأراها تهجرني و تتركني مع حزني

_ عفواً .. هل قلتَ شيئاً ، لم أسمعك كان صوتكَ خافتاً جداً

صُدم من ردها ... صمت قليلاً و هو ينظر إليها ، ثم بدأ يضحك ...

*

عاد ناتان لبيته و لم يكن بحالة جيّدة ، في الحقيقة لقد حزن قليلاً لأن رفيقاه تركاه و ذهبا .. جلس على حافة سريره وسط ظلمة غرفته .. كان هناك بصيص ضوء خافت يتسرب من النافذة من ضوء القمر .. سمح هذا الضوء برؤية لمعان العَبرات في عينَيْ ناتان قبل أن تسقط و تسيل على خدّيه ، كانت الأفكار تتضارب في رأسه ، لماذا يبكي ؟ لماذا هو حزين ؟ هل حزنه هذا ناتج عن فعل رفيقيه أم عن ذكرى مدفونة في طيّات الماضي ... لنتخيل أن حبيبته لم تمت في ذلك اليوم هل من المفترض أن يكون الآن زوجاً و أباً ؟ هل سيكون الآن سعيداً ؟ هل ستكون زوجته الحبيبة في حضنه تعانق صدره ؟ هل سيكون أولاده يتراقصون حوله الآن بهمجية طفولية ؟

وقف و مشى نحو طاولة صغيرة بجانب سريره و أخذ صورة مُحاطة بإيطار موضوعة فوق الطاولة .. تأمَّل وجه جيسي في الصورة و الذي كان مُشرقاً ببسمة مطبوعة على شفتيها تقف ملتصقة بناتان الذي بدا في غاية السعادة في تلك الصورة ، تساقطت دموعه على وجهها و بدأتْ ومضات الماضي تُعاود الظهور

لم يستطع أن يتمالك نفسه و بدأ بالأنين ، وضع الصورة على الطاولة و جلس على كرسي و أشعل سيجارته و بدأ ينفث الدخان وسط نحيبه

يمرّ الإنسان بوقت عصيب في أكثر الأحيان .. السعادة و الفرح هي أمور قليلة الحصول بل نادرة .. لطالما تساءلتُ « هل السعادة ليست من حقنا ؟ أو على الأقل ليست من حقي ؟ » فكّر معي ، لماذا لا ترثُ إرثاً كبيراً من جدك الملياردير الذي اختفى عنك لسنوات و تمضي وقت مراهقتك مع إنسانك الحبيب الذي اختاره فؤادك ليكون شريكك في فرحك و ترحك دون تدخّل طرف (أو أطراف) خارجية تمنع علاقتكما و تقطّع سُبل الوصال بشتى الطرق ؟ ..و من ثم تتزوجه دون عوائق و تنجبان أطفالاً و تكبران و أنتما مرتاحين مادياً و معنوياً خاصة أنكما مع بعضكما .. لماااااذاااا ؟؟؟؟؟

هل تعلم يا صديقي القارئ أنني لا أجتمع بذات السِحر و البهاء إلا كل أشهر طِوال مع رزمات من الأيام المتكدّسة .. انتظر انتظر .. اجتماعي بها ليس كما تتصوره .. أنا لا أمضي وقتاً جميلاً معها.. أنا لا أضمّها إليّ طوال الوقت و لا نخرج لاستكشاف العالم .. نحن لا نستلقي جنباً إلى جنب بقربِ المدفأة في ليالي الشتاء الممطرة و لا نمشي تحت المطر بجوّ رومانسي كلاسيكي .. بل نحن نجلس على بعد عشرين متراً بيننا تحت عيون المراقبين عديمي الرحمة .. نحن لا نتكلم و لا نتحرك باتجاه أحدنا .. لا يجرأ أحدنا على نطق اسم الآخَر أمامهم .. هل تظن أنني انتهيت ؟ لاااا أنا لم أنتهي ، فنحن أيضاً لا ننظر لبعضنا (فكما تعلم النظرات قد تكلّفك نقوداً و مالاً جمّا .. فالنظر يكلّف مالاً) لهذا نحن نحرص جداً على عدم الإسراف

و طبعاً كما تعلم بما أننا بشر فمن الضروري أن نتحرّك عندما تسنح لنا الفرصة ، لسنا أصناماً في النهاية .. فعندما نتحرّك و نشعر أن المسافة بدأت تقصر بيننا نفاجئ بأحد المراقبين يتدخّل _ بنظره _ لينقذ الموقف نحن نلتقي كالمساجين .. ما رأيك إن أخبرتك أننا عندنا نلتقي مثل هذه اللقاءات غالباً ما أسمع من أم حسنائي « حماتي » جملة تلمّح بالطرد ، فمرّة راحت تهمس محادثة ابنها ليأخذني بعيداً بعض الوقت _ طبعاً لتبعدني عن أنثاي _ و المشكلة أنها لم تهمس له في أذنه ، بل همست في أذني!!!!!! .. لقد ألصقت فمها بي و راحت تحادث ابنها ظناً منها أنها تأمره سرّاً !! أو ربما كانت تحاول أن تُسمعني ذلك عن قصد !

و في مرة سابقة صاحت لابنها على مرأى مني ليأخذني لأي مكان يريد و راحت تدفعني إليه قائلةً « هيّا اذهب معه » ظانّةً أنني غبي لدرجة عدم فهم مُرادها ، المشكلة ليست هنا .. بل المشكلة أنها في بيتي !!!!! هي تخرجني من بيتي!!

حسناً سأطلعك على ما يجول في خاطري ، و هو أني أنوي تأليف كتاب بعنوان « كيف أتخلّصُ من حماتي » أنت فقط انتظر و سترى

الصباح التالي

الساعة السابعة

لم يرّن المنبه هذه المرة ، فقد أطفئ ناتان هاتفه قبل أن يخلد إلى أحضان سريره .. مرّت ساعتان و لم يستيقظ بعد ، كان يجب أن يكون في الشركة منذ ساعتين و لكن حالته النفسية لا تسمح له اليوم بمخالطة الناس فهو الآن في حضرة اليأس

وقف ديفيد أمام واجهته الزجاجية وراء طاولة مكتبه يفكر شارداً

_ لمَ لم يأتِ ناتان اليوم ، هل حصل له مكروه ؟

حرّك رأسه و تناسى الأمر و قال ساخراً :

_ لا .. لا.. لا ، لن يُصاب بأذى .. ما الذي

سيصيبه ؟!

ثم جلس على كرسيه و قد عبس وجهه :

_ و لكن هذا غريب ، لم يغب أبداً عن دوامه و لم يتخلّف عن مكتبه يوماً .. ما الذي حدث اليوم !!

*

كانت كريستينا في المستشفى عندما رنَّ هاتفها

_ الو

_ مرحبا كريستينا

_ اهلاً ديفيد

_ هل اتصل بكِ ناتان

_ لا .. لم أتحدث معه منذ اتصال البارحة

_ هذا غريب

_ ما الغريب ، هل هناك خطب ما ؟

_ لم يأتِ للشركة اليوم و هذا ليس من عادته و لم يتصل و لم يتحدث معنا و لم يأتِ البارحة إلى موعدنا

_ نعم معك حق ، هل عساه يكون مريضاً ؟

_ يجب أن نذهب إلى منزله اليوم ، بعد انتهاء دوامكِ

_ حسناً لنفعل

أخذ ناتان هاتفه و بحث عن رقم بعينه ، اتصل به .. رد صوت أنثوي :

_ ماذا ، هل أحضرت المال

أجاب ناتان بجديّة يائساً حاسماً أمره :

_ لن أستطيع تدبيره إلا لبعد شهر ، هذا آخر ما عندي

_ إذاً تريد أن تتحداني بأذيّتكَ ؟

_ لم أتحدى أحداً ، كل مافي الأمر أني لم أستطع تدبير المبلغ

أغلق الخط بوجهها و وضع الهاتف بجيبه

في الحقيقة لم يكن يعلم ناتان أنه يتعامل مع شيطانة تترأسُ عصابة من الشياطين ، ليسوا شياطين الجن بل شياطين الإنس ...

*

الساعة الثامنة و النصف مساءً

خرج ناتان من الفندق ليتمشّى قليلاً .. فرأى ديفيد و كريستينا يتجهان إليه من بعيد .. همهم في نفسه (ما الذي جاء بهما الآن ، هل شعرا بالذنب)

كاد أن يعبر الشارع لولا صوت سيارة ڤان همجية كان يدوي و يرتفع كأنها تقترب منه ، لم يستوعب الأمر بعد و لكن السيارة وقفت أمامه مباشرة و خرج منها رجلين ضخميّ الجثة يرتديان بدلة سوداء بعضلاتٍ مفتولة .. أمسكاه و قاما برميه داخل السيارة ثم دخلاها و أغلقا الباب خلفهما

و انطلقت السيارة بهمجيّتها مُسرعة .. حدث كل هذا بثوانٍ معدودة أمام ناظريّ ديفيد و كريستينا الذان أخذا وقتاً حتى يستوعبا الأمر ... فجأة تحركت كريستينا نحو شاب يقود دراجته فضربته و طرحته أرضاً و صعدتْ على الدراجة

_ هيا اصعد يا ديفيد بسرعة

ركض ديفيد بتردد و جلس خلفها ، انطلقتْ كريستينا في ذات الاتجاه الذي ذهبت منه السيارة و لكن لم تظهر أمامهما بعد

_ يبدو أنها ابتعدتْ عنا يا كريستينا

_ إذاً سنجعلها تقترب

زادتْ كريستينا من سرعة الدراجة النارية حتى بدأ الخوف يدبُّ في قلب رفيقها

اتسعتْ عيناه و أشار بيده صائحاً :

_ تلك هي السيارة لقد اقتربنا منها

في تلك السيارة كان ناتان مستلقياً على ظهره و يقف الرجلين فوق رأسه ، انحنى أحدهما و اقترب من ناتان و قال بصوتٍ أجش :

_ قلتَ أنكَ لن تدفع المال إلا بعد شهر أليس كذلك ؟

ردَّ ناتان :

_ لم أستطع تدبر المال و لن أستطيع ذلك

_ إذاً علينا أن نلعب معكَ لعبة صغيرة لكي تستطيع تدبر المال

أمسك الرجل بعنق ناتان و وجّهَ إليه لكمة كسرتْ أنفه و بدأتْ تسيل دماؤه

_ و الآن سأسلك .. متى ستدفع المال ؟

رد ناتان بعد ثوان بصوت مبحوح :

_ لا مال .. لا مال

ازداد غضب الرجل و أمسكه من شعره و شدّه إليه و هو يقول

_ الآن سنزيد من مستوى اللعبة

أخرج عود ثقاب و أشعله و انتظر ثوان حتى هزَّ رأسه للرجل الثاني الذي انحنى و أمسك فم ناتان و أجبره على فتحه

عندها بدأ ناتان يحاول الإفلات منهم بتحركه بهمجية وسط صراخه ، بدأ يقرّب الرجل عود الثقاب منه شيئاً فشيئاً و النار تقترب أكثر من وجهه

حتى أدخله في فمه و لم يلقهِ فيه كي لا ينطفئ بل بقيَ ممسكاً به واضعاً إياه في وسط فم ناتان

ازدادت صرخاته حتى كاد فمه أن يتشقق

أطفئ عود الثقاب في ثغره و قال مرة أخرى

_ و الآن ما قولك بالنسبة للمال ؟

لم يرد ناتان لأنه لم يستطع تحريك فمه

فأخذ الرجل الثاني يضرب به و يركله حتى أدماه

عندها فجأةً فُتح باب السيارة و دخل ديفيد إليها

نظر ديفيد إليهم و بدأ يتفحصهم من قدميهم إلى أعلى رؤوسهم

و عندما رأى ضخامتهم و عضلاتهم استدار و همَّ بالهرب

و لكن صاحت به كريستينا التي كانت تقود الدراجة النارية بجانب باب السيارة

_ السااااائق

التفتْ ديفيد ورائه و هاجم السائق فبدأتْ السيارة تنحرف عن مسارها

رفع أحد الرجلين ناتان و قال

_ إن كان هذا ما تريدانه فخذاه

و رماه من الباب

سقط على الطريق و جسده يتدحرج و يحتكّ بالطريق حتى زادتْ جراحه و دماؤه

قفز ديفيد إلى دراجة كريستينا التي خففت سرعة الدراجة حيث استدارت بها متوجهة إلى ناتان

أخيراً وصلتْ فهرعتْ إليه تهزّه بقلق ، صاحت بديفيد :

_ اتصل بالإسعاف حالاً ماذا تنتظر

فعل كما أمرته

كان ناتان بعينين نصف مغمضة يرى فوق وجهه وجه كريستينا الباكي و يتردد بمسمعه صوتها الخائف المرتجف يصيح به :

_ نااتاان .. افتح عينيك يا ناتاان ، عليكَ المقاومة لا تستسلم يا ناتاان

بدأتْ الدنيا من حوله تسوّد و تُظلم بينما يتردد صدى صياح صوتها

_ لاا تستسلم ياا ناتاان ...

تخيّل أن تموت أنت في مثل هذا الموقف.. ألن تشعر بأن موتك هذا بطولي بعض الشيء ؟

٤

المعاناة لا تعني أنك ستنجح.. يمكن أن تعاني وتموت.

_ ليو تولستوي

فتح عينيه و أشاح بنظره ليجد نفسه في سرير المستشفى و بجانبه كريستينا تمسك يده نائمةً و مسندةً رأسها على حافة السرير ..

_ هل ما حدث كان حلماً أم ما رأيته حقيقة !؟

رفعتْ كريستينا رأسها و نظرت إليه بعينين نصف مغمضتين و صاحت

_ ناتاان لقد استيقظت !!

أومأ برأسه فأردفتْ :

_ من هؤلاء الرجال الذين خطفوك ؟ هل تعرفهم ؟

صمت ناتان هنيهة و قال

_ إنها قصة طويلة

_ إذاً أخبرني بها ، ليس لديك عمل الآن أنت في سرير المستشفى .. هل نسيت ؟

نظر إليها و قد أطال النظر ، تأمل عينيها التي شعر للمرة الأولى بشيء بداخله تجاههما

_ حسناً ، سأخبركِ بكل شيء ...

بعد نصف ساعة و بعد أن أخبرها القصة كاملة

بعينين مندهشتين صاحت به

_ هل من الممكن حقاً ان يقتلوك !!

أومأ ناتان برأسه و قال :

_ نعم ، إن تأخرتُ بدفع الدَيْن

أردفَ بعد ثوان :

_ و لكني متأكد أنّي س...

و فجأة توقف ناتان عن الكلام بسبب ألمٍ بترَ جملته فوضع يده على قلبه شاهقاً

صرخت كريستينا و هي تقترب منه غير عالمة ماذا عليها أن تفعل

_ ناتان .. ناتان ماذا يحصل

صرخت بأعلى صوتها ليتجمهر حوله طاقم من الأطباء و الممرضين الذين بدأوا محاولة إنقاذه

أحضروا معداتهم و وضعوا على فمه جهاز الإنعاش ، أُغمِيَ على ناتان و أخذه الممرضون إلى غرفة أخرى لحالات الطوارئ

بقيَتْ كريستينا تنتظره على باب الغرفة بتوتر ، أمسكت هاتفها و اتصلتْ على ديفيد و أخبرته أن يأتي

وصلَ ديفيد يمشي مُسرعاً يتجه نحوها قال بصدر يعلو و يهبط :

_ ماذا هناك ، ما الذي حصل

قالتْ بصوت مرتجف

_ لا أعلم ، كنت جالسة معه بعد أن استفاق و فجأة وضع يده على قلبه و بدأ يتألّم

_ هل أصابته وخزة قلبية !!

_ لا أعلم ، أظن أنها كذلك

خرج الطبيب و قال لهم بملامح يبدو عليها عدم الارتياح

_ حالته مستقرة الآن . و لكن لا أعلم إن كانت ستدوم

صاحت كريستينا

_ ماذا تعني بكلامك هذا !!

تجهّم وجه الطبيب و قال بهدوء :

_ غالب ظنّي أن لديه مرضاً قلبياً خطيراً

أنزلتْ كريستينا رأسها مصدومة

فقال ديفيد بصوت هادئ :

_ هل هناك علاجٌ لهذا المرض ؟

رد عليه الطبيب بخيبة أمل :

_ ليس هنالك علاجٌ بعينه يمكنه شفائه و لكن هناك احتمال ضئيل بنجاته

رفعتْ كريستينا رأسها و دلفتْ إلى غرفة الطوارئ.. كان ناتان مستلقياً على سرير تغطيه ملاءة بيضاء .. على فمه قناع الأوكسجين و بجانبه جهاز لقياس معدل نبضات قلبه .. اقتربتْ منه و جلستْ بجانبه

جلس ديفيد على كرسي قريب من السرير

فقالت كريستينا بملامح حزينة ناظرة إلى ناتان المُغمى عليه :

_ لم أعرفه منذ وقتٍ طويل.. و لكن حالته الآن تفقدني أعصابي لسبب ما

أومأ ديفيد برأسه و لم يقل شيئاً .. ليس هناك شيء ليقوله على أيّ حال

بعد ساعتين عاد الطبيب إلى الغرفة .. طرق الباب و دخل

_ أخبارٌ سارّة .. هناك طبيب أجنبي ماهر و مشهور بعملياته القلبية الناجحة قادمٌ إلى هنا بعد أن وافق على طلب المستشفى بمساعدته لنا

وقفتْ كريستينا بسعادة

_ متى سيأتي ، هل ستتم العملية اليوم ؟

ردَّ الطبيب

_ هذا الطبيب في دولةٍ أخرى و سيصل غداً

*

اليوم التالي

تركيا

الساعة الثامنة صباحاً

المطار

في قاعة الانتظار التي تعجُّ بالمسافرين الذين يهمهمون بلغات مختلفة تداخلتْ ببعضها

قرب الواجهة الزجاجية على مقعد حديدي كان يجلس الطبيب يونس .. مُتكتفاً بيديه .. منزلاً رأسه على صدره و مستغرقاً في نومه .. مرتدياً معطفاً طويلاً قماشياً أسود اللون يصل إلى الركبة بشعرٍ أشقر غامق قصير .. و بجانبه امرأةٌ نائمة مسندةً رأسها على كتفه الأيسر مرتديةً معطفاً خمرياً ببشرة بيضاء مثل يونس .. كانت هذه زوجته أسيل

عانى الزوجين يونس و أسيل من حبٍّ أضناهما و عذبهما برفض أهلهم تزويجهم .. فَـهربا و حدثت أحداث كثيرة انتهت بزواجهما و التقاء شفاههما تحت سقف واحد

استيقظ ناتان على صوت شخص دوى في القاعة

_ The plane to New York leaves in ten minutes

أي ستغادر الطائرة إلى نيويورك خلال عشر دقائق

هزَّ يونس زوجته

_ هيّا بنا يا عزيزتي .. حان موعد طائرتنا

قالت أسيل بعينين نصف مغمضتين

_ ساعدني على النهوض

أمسكَ بها يونس و ساعدها على الوقوف

فقالت و هي نصف نائمة

_ ما رأيك يا عزيزي أن تُحضرَ حقائب سفرنا ريثما أصل إلى الطائرة

ردَّ ناتان و هو يمسك بحقيبة يجرّها عن يمينه و أخرى عن شماله

_ هل أنتِ مخبولة ؟ .. كنتِ نائمة و الآن استيقظتِ و أنا أيضا كنتُ نائماً مثلكِ .. فلماذا أنا أستطيع أن أجرُّ الحقائب و أنتِ لا تستطيعين

و فجأة وكأنها لم تكن متعبة أو نائمة هرعتْ إليه و ضمته من جانبه الأيسر و هي تقول بلهجة طفولية :

_ هيّا يا عزيزي ، هيّا هيّا .. هل تريدُ مِن عزيزتكَ الجميلة أن تألمها يدها من جرِّ هذه الحقيبة الثقيلة

أنزلَ يونس رأسه و زفر مُستسلماً و همهم في نفسه :

_ لا أستطيع مقاومة سحرها و تأثيرها عليّ.. لماذا أستسلم دائماً لها ، إنها تنوّمني مغناطيسياً و تعلم كيف تجذبُني إليها ....

صعدَ الزوجين الطائرة و جلسا بجانب بعضهما

فقالتْ أسيل ليونس بوجهٍ شارد و ملامح بائسة :

_ أظنُّ أن مجيئي معكَ فعلٌ خاطئ

التفتَ إليها مشدوهاً :

_ ماذا تقولين ؟ .. لمَ تفكرين هكذا ؟

_ أنتَ استدعاك مشفى لمعالجة مريض بحالة حَرجة .. فما شأني أنا ؟

_ ألا تريدين أن ترافقيني ، هل أنتِ غير راغبة بالذهاب معي ؟

_ لا .. لا أقصد هذا .. و لكن أخافُ على سمعتكَ قد يتحدثون عنكَ و يقولون أنّ زوجتك تتدخل بعملك و تحشر أنفها في جميع أمورك

ابتسم يونس و أمسكَ يدها اليُسرى و شبكَ أنامله بأناملها و قال بــحنيّة :

_ أنسيتِ أنَّ أموري هي أمورك و أنَّ عملي عملكِ و قلبي قلبكِ و عقلي عقلكِ .. فأنتِ أنا و أنا أنتِ .. فإن استدعوني فكأنهم قاموا باستدعائكِ .. ثمَّ إنّي لا أحبُّ أن أذهب لمكان دونكِ خاصة أنَّه بعيدٌ

عنكِ .. تفكيركِ سلبي ، لمَ لا تقولينَ أنَّهم سيقولون انظروا كم يُحبُّ زوجته لدرجة أنّها لا تغيب عن ناظره

ابتسمت قليلاً و نظرتْ له في طرف عينها بخجل

الواقع أنَّ يونس يحبّ هذه البيضاء حبّاً تتقطع به شرايين جسده .. ألم تسمع الله عندما قال « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » و الواضح أن يونس يحبّ حسناءه حبّاً جمّا و ليس المال .. دائماً ما يقول في نفسه : كيف ذلك ؟ .. كيف تأسرني و تتحكّم بي و بنفسي إلى هذه الدرجة ، أنا ذاتي لا أستطيع ضبطها و إدارة عواطفها و شهواتها و لكنها تستطيع ذلك بدلاً منّي !! باللهِ إلى أيّ مرحلة من عشقها قد بلغتُ .. حقاً لا أدري كيف سأحبُّ طفلةً ستنجبها فأنا أعتبر زوجتي طفلتي و قد حدّثتك عن حبّي أين وصل .. لا أعتقد أبداً أني سأحبّ إنساناً مثلها و لن أسمح لنفسي .. إن كنتِ تسمعينني الآن و تقرأين ما كُتب فاعلمي أنكِ بالنسبة لي الكون قد تجسد على هيئة أنثى .. السعادة متشكلة بهيئة إنسانية أنثوية .. أنتِ كَوني و سعادتي في آنٍ واحد «أُحـــبُّـــكِ» حتى أموت و تنهش الديدان عظامي و لحمي ليتحرر هذا العشق الذي أهلكني من فؤادي منطلقاً إلى السماء حيث سينتظركِ هناك ليعيش معكِ حياته الأبدية

الساعة التاسعة صباحاً

اليوم الموالي

كانت كريستينا نائمة مسندةً رأسها على حافة سرير ناتان

استيقظت و رفعت رأسها على أثر وقع طرقٍ على الباب

فتح الطبيب الباب و قال مبتسماً :

_ صباحُ الخير .. لقد وصل الطبيب يونس و هو الآن في غرفة العمليات

ابتسمت كريستينا و كادت ابتسامتها تشقُّ وجهها و لكنها عبستْ فجأة بعد لحظات .. لقد أدركتْ أنه سيخضع لعملية جراحية في قلبه !! ... لم تفكر في الأمر .. هذا النوع من العمليات (جراحة القلب) خطير على حياة المريض .. ماذا إن توقف قلبه إثر خطأ ما ؟ ماذا إن قُطع أحد شرايينه .. ماذا إن فشلتْ العملية .. يا إلهي .. هناك سيلٌ من التساؤلات و دوافع الخوف في رأسها

قالت أخيراً و قد بدا عليها الخوف :

_ و لكن .. هل أستطيع أن أدخل معه غرفة العمليات

_ آسف و لكن هذه العملية ليست عملية عادية.. إنها عملية صعبة خاصة أنها في القلب .. ما يعني أن خطأ بسيط قد يصنع كارثة

أنزلتْ رأسها بحزن و ارتباك .. و نظرتْ نظرة أخيرة إلى ناتان قبل أن يأخذه الممرضون إلى غرفة العمليات .. من أصعب الأوقات على حياة الإنسان هي عندما يرى شخصاً يحبّه لأبعد الحدود تحت وطأة خطر محدق و قد يتسبب بوفاته .. هذا الشعور كمن يرى النار تشتعل في بدنه .. النار تُعذّبه و لكن الخطر هو عندما يمتد تأثير النار متمرّداً ليقضي عليه نهائياً .. هذا كذاك « موتٌ بطيء » فأنت تموت مراراً و تكراراً برؤيتك عزيزك في تلك الحالة و ذاك يموت مراراً أخرى و هو يرى النار تتمتدد و تتنامى في جسده و يرى مصيره أمام ناظريه

كان يونس في غرفة يرتدي ملابسه المخصصة للجراحة و من ثم خرج و اتجه نحو باب الغرفة التي يكمن جسد ناتان فيها لكي يخضع للعملية

و قبل أن يفتح الباب أمسكتْ بيده يدٌ أخرى

التفتْ خلفه فرأى أمامه فتاةً في العشرينات من عمرها .. شقراء الشعر ... ترتدي كنزة صوفية بيضاء مخططة بالأحمر بخطوط شبه عريضة مع بنطال أسود

_ هل أنت الطبيب يونس

نظر إليها بتمعّن و ردَّ قائلاً :

_ نعم أنا هو .. هل تحتاجين مساعدة ؟

قالت بارتباك :

_ أنا .. أنا فقط أريد أن أوصيك بأن تكون حذراً على حياة الشخص الذي ستجري له العملية

ابتسم يونس و قال بهدوء بنبرة مُطَمئِنة:

_ لا تقلقي .. العملية ستنجح .. أنتِ فقط عليكِ أن ترتاحي قليلاً

أومأت برأسها و فتح يونس الباب و دخل

بدأ الوقتُ يمرُّ ببطء شديد الساعات تمرُّ كأنها سنوات

أُصيب ناتان دون أن يعلم بمرض في قلبه منذ سنوات عندما ماتت حبيبته جيسي .. دخل حينها في حالة نفسية صعبة و لم يستطع النوم لسنوات.. كان ينام كل يومين ساعتين فقط .. جرَّبَ أدوية كثيرة و لكن غالبها لم ينفع .. زار العديد من أطباء النفس و لكن نادراً ما كان يرى طبيباً ناجحاً ، كان يحلم بها كل ليلة .. كانت تأتيه و تضمّه بين ذراعيها .. كان يعدها ألا يتأخر و أن يأتيها بأسرع وقت ممكن .. مرةً اشترى من أحد تجّار الأسلحة مسدساً من عيار خفيف بعض الشيء .. و انتظر حتى حان منتصف الليل .. كان في غرفته الشبه مظلمة بشعاع ضوء القمر الخافت المتسلل من النافذة .. المسدس الأسود كان أمامه على الطاولة .. أشعل سيجارة (بعد أن أدمن على التدخين) و بدأ ينفث دخانها .. رأى طيفها .. قالت له : هيّا يا ناتان .. لقد انتظرتك كثيراً ، كيف تُطيق فراقي هكذا ، ألا زلتَ تحبُني ؟

أخذ سيجارته و أطفأها و نظر للمسدس بتمعّن .. في الحقيقة الانتحار ليس سهلاً ، أن تأخذ مسدسك و توجّهه نحوك و تضغط الزناد و أنت تعلم أن هذه الضغطة ستتسبب بخروج رصاصة قوية و مؤلمة باتجاه جسدك و أن دمك سيتسرب منك و ستشعر بألم مرير و أن الأوان قد فات .. قد تندم و لكن لا رجعة .. كل ألوان الانتحار صعبة .. الذي يُجهّز حبل مشنقته و يُعلّقه و يصعد على الكرسي و يلفّه حول رقبته هو يعلم أنه بمجرد ركل الكرسي سوف يُعلَّقُ في الهواء بجسد يتحرك و يُقاوم الاختناق ليعيش .. و لكن الأوان قد فات ، لا رجعة من قرارك .. لا خلاص ... حال صاحب المشنقة كحال من يقفُ على برجٌ مرتفع ، هو يعلمُ أنه بمجرد أن يقفز و يفارق الحافة سيكون لديه ثوانٍ سريعة للوصول للأرض و في نفس الوقت بطيئة لأنه بكل بساطة سيكون قد ندمَ كسابقيه على قراره ، سيرى الأرض تقترب أكثر و أكثر بمعنى آخر أن حتفه يقترب أيضاً ، يعلمُ أن سبيله هو الجحيم و العذاب ، و قد يكون لا يعلم إن كان لا ديني .. يعلم كمية الألم الذي سيُلحقهُ الاصطدام و الفقرات العظمية التي ستتكسّر و تخرج من مكانها بالإضافة إلى نافورة الدماء التي ستنطلق من جسده إلى الهواء ، جمجمته ستنفجر و تتحطم .. قلبه سيتلقى ضغطاً هائلاً و قد تنفجر أوعيته الدموية .. عامود الفقري سيخترق جسده و يخرج من الجهة الأخرى هذا طبعاً إن بقيَ قطعة واحدة و لم يتحول إلى أشلاء لتتطاير فقراته في الهواء .. سيتكسّر حوضه .. رقبته .. أضلاعه .. قفصه الصدري ..

الانتحار ليس موتةً سريعة كما يظن الناس .. أمسك مسدسك و اضغط الزناد و سينتهي الأمر.. اقفز من الطابق السابع و لن تشعر بالوقت حتى تلامس الأرض و بعدها لن تحسّ بالألم .. الأمر ليس هكذا .. التفكير الذي يسبق لحظة الانتحار هو أصعب تحدي للنفس .. الصراع النفسي و الهوس و

الألم و التردد و القلق و التوتر سيكون حقاً عذاباً طويلاً و بطيئاً إن استمر لثوانٍ أو دقائق أو حتى ساعات معدودة .

التقط ناتان المسدس و اخذ يتفحصه .. صوّبه لصدره و أغمض عينيه .. بدا متردداً .. متوتراً .. خائفاً .. و لكنه أخذ نفساً عميقاً و من ثم ... طخخخ

هرع والدا ناتان إلى غرفته بعد أن سمعا صوت الطلق الناري الذي دوى من غرفته .. فتح والده الباب ليرى ولدهُ ملقى على الأرض .. واضعاً يده على صدره و السائل الأحمر يتسرب من بين أصابعه

حضرتْ سيارة الإسعاف بسرعة و نقلته إلى المشفى

أُدخِل إلى غرفة الطوارئ و استطاع الأطباء بصعوبة إنقاذه .. خضع ناتان بعد تلك الحادثة لحجز في إحدى مستشفيات الأمراض العقلية حيث لم يُعتبر مجنوناً و لكن بالتأكيد لديه حالة نفسية سيئة ، كان في أغلب الليالي يصرخ و يُكسّر الأشياء التي حوله و يصيح باسمها (جيسي) ، كان يصرخ بالأطباء و يقول في هستيرية : أعطوني مسدساً ، حبلاً ، عصا ، قطعة زجاج ، سكين .. أعطوني أيّ شيء ، أريد الذهاب إليها .. إنها هنا ألا ترونها ، إنها هناك تنظر إليّ .. إنها هنا تعذبني بعتابها .. إنها هنا تلومني

عانى الأطباء كثيراً من حالته الهستيرية و لكن بعد أشهر من العلاج تحسّن حاله و سُمحَ له بعد الخضوع لفحصٍ دقيق بالخروج من المشفى

*

خرج الطبيب يونس بعد ساعات من الغرفة فهرعتْ إليه كريستينا برفقة ديفيد بعد أن أتى

_ كيف جرتْ العملية

قال الطبيب بنبرة يسودها الحزن بشكل واضح :

_ في الحقيقة حالته ليست جيدة كثيراً ، العملية نجحت و لكن أخشى أن تسوء حالته مرة أخرى

قالت كريستينا بعينين مُلتمعتين

_ هل تعني أنه يمكن أن يموت

_ لا ، هذا ليس ما أقصده .. هناك احتمال موت ضئيل و لكـ..

لم يكمل جملته فقد قاطعه نحيبها إذ انهمرت الدموع منها و بدأت تبكي

أخذ يونس ديفيد بعيداً عنها و قال له :

_ هل لي أن أسألك كيف ساءت حالته هكذا .. لأنني شعرتُ أن حالته الصحية هذه نتجت عن تعذيب و ضرب جسديّ

قال ديفيد بعد صمت طويل بتردد :

_ في الحقيقة .. أظن أن صديقي متورط بدَيْن لا يستطيع ردّه مع إحدى العصابات

شردَ يونس قليلاً و قال بعد برهة :

_ كم قيمة الدَيْن ؟

_ خمسون دولار .. أ .. أقصد خمسون ألف دولار

أطرق الطبيب مُفكراً و مشى دون أن يقول شيئاً مبتعداً خلال الممرات الشبه معتمة ..

بعد يومين

استيقظ ناتان و استطاع الكلام بصعوبة .. عليه أن يبقى في المشفى لشهر تقريباً

لازمته هذه المدة كريستينا.. أما ديفيد فكان يأتي في اليوم مرة أو مرتين

و في إحدى هذه الأيام فُتح الباب و دخل الطبيب يونس و قال مبتسماً :

_ مرحباً

نظر ناتان و ارتسم طيف ابتساة على وجهه و رد عليه :

_ شكراً لك .. لقد أنقذتني

هزَّ رأسه و ابتسم و هو يقترب :

_ هذا عملي .. عليك أن تنتبه لصحتك أكثر و ألا تُجهد نفسك بالأعمال الشاقة أو الركض ، بالإضافة إلى أن حالتك النفسية لها تأثير كبير على صحتك و عمل قلبك ، لذا عليك أن تهتم بها أيضاً

أومأ ناتان برأسه إيجاباً و أردف الطبيب قائلاً :

_ سأسافر اليوم ، طائرتي ستنطلق بعد ساعتين من الآن ، إن حدث لك مكروه اتصلوا بي .. يمكنكم أخذ رقم هاتفي من المشفى

شكرَه ناتان و ودّعه و خرج

التفتت إليه كريستينا و قالت بحماسة و فضول :

_ هل رأيت زوجته ؟ يقولون أنها دائماً برفقته و لا تفارقه أبداً ، و سمعتُ من الممرضين أن لديهم قصة حبٍّ مثيرة .. لم أكن أعلم أن بعض العرب يعشق من قلبه أنثاه هكذا

_ دعينا الآن من قصص الآخرين و دعيني في مصيبتي و كيف أرد دَيْني

و في هذا الوقت دخل ديفيد إلى المستشفى .. و بينما كان يتجه إلى المصعد تقدّم إليه أحد العمّال و قال له : مرحباً سيدي .. هل أنت ديفيد كاميرون ؟

رد ديفيد باستغراب :

_ نعم .. أنا هو

قال و قد رفع بيده حقيبة سوداء :

_ لقد تُركتْ هذه الحقيبة لك

_ حقيبةٌ لي ؟

_ نعم هي لك

أخذ ديفيد الحقيبة و انصرف العامل ..و عندما فتحها ارتسمتْ بسمة على شفتيه و همهم بصوت خافت :

_ لقد فَعَلْتَها ...

٥

" لم أطلب يداً تمسح دموع الفزع ولم أُوقظ أحداً ليعانقني كي أهدأ، علامَ يجب أن أكون ممنوناً؟ لقد عشت أسوأ اللحظات بمفردي "

_ *فيودور دوستويفسكي*

دخل ديفيد إلى ناتان بينما كان يتحدث عن دينه و قال له بعد أن ألقى الحقيبة على سريره

_ ليس هنالك داعٍ للتفكير ، خذ هذه و افتحها

جذب ناتان الحقيبة بعد أن ارتسمت على وجهه نظرات متسائلة و أخذ يفتحها ببطئ.. صُعق عندما رأى رزماً من الأوراق النقدية

_ ما .. ما هذا

_ تركه لك الطبيب يونس لتحل مشكلتك

لم يستطع الرد على إثر الصدمة و السعادة في نفس الوقت فقال صائحاً و البهجة تعلو محيّاه :

_ يا إلهي كم أحب هذا الطبيب

بعد أيام قال ديفيد لناتان بصوت متذمّر و هما في غرفة المشفى :

_ ناتان ، ألا تشعر أنه حان الوقت لأصارحها بحبّي ؟

_ مَن تقصد ، كريستينا ؟

_ و مَن غيرها أيها الغبي

_ امممم .. في الحقيقة لا أعلم إن كان الوقت قد حان .. ولكن أرى أنه يجب أن تنتظر أكثر

تأففَ ديفيد و رد :

_ لقد نفذ صبري .. إلى متى سأنتظر

.. إلى متى ؟

ما أصعب الانتظار و ما أصعب الصبر حتى بلوغ انتظارنا أقصاه ، إن كان الحزن ديناً فإني أرى أن رأس الثالوث المقدس هو الانتظار

بعد فترة .. خرج ناتان من المستشفى و معه كريستينا .. أما ديفيد فكان في العمل ، ركبا سيارة ناتان و لكن كريستينا هي من قادتْ هذه المرة لأن صديقها لم يكن بحالة تسمح له بالقيادة

_ إلى أين سنذهب

_ أرى أن نذهب إلى شقتي

_ حسناً كما تريد

أدارت المفتاح و توجّها لشقة ناتان .. لم تزر كريستينا شقته من قبل .. هذه مرّتها الأولى

وصلت السيارة و قال ناتان و هو ينزل من السيارة

_ هيّا تعالي ، فلنمضِ بعض الوقت سويةً فأنا مريض و لا أستطيع أن أذهب إلى مكان

وافقتْ كريستينا و اتكأ عليها بجسده لأن جرح العملية لم يلتئم بعد

صعدا المصعد و ضغطا زر الطابق الذي يضمّ غرفة ناتان

وصلا و دخلا الشقة ، كانت مثلما تركها و لم يتغير بها شيء

تقدما إلى السرير و أجلسته عليه .. نظرتْ تتفحص الشقة

_ شقتك جميلة

التفتت إلى الصورة الموضوعة على الدرج الصغير الكامن بجانب سريره

اقتربتْ منها و أمسكتها و قالت متسائلة :

_ مَن هذه في الصورة ؟

أشاح ناتان بوجهه و قد عَبَس و تذكر معشوقته و أجاب بعد برهة من الزمن :

_ حبيبتي

_ لم أكن أعلم أن لديك حبيبة ، أين هي لمَ لا تعرّفُنا عليها ، انتظر انتظر بما أنها حبيبتك .. لمَ لم تأتي للمشفى للإطمئنان عليك ، هل هي في دولة بعيدة ؟

ردَّ ناتان بعد أن صمت لثوان معدودة

_ لقد ماتت

نظرتْ كريستينا له بحنيّة و عطف ، جلستْ بجانبه على حافة السرير و وضعتْ يدها على يده

_ هل تحبها كثيراً

قال ناتان و الجروح تمزّق نبرة صوته :

_ لم أعد أحبها

_ أنتَ تكذب ، أشعر بذلك من العبرات التي تتلألأُ بعينيك

أشاح بوجهه و ساد صمت قاتل

_ ما اسمها

_ جي .. جيسي

قالت بابتسامة حنونة و قد أشرقَ وجهها

_ ابتهج يا ناتان ، لم تكن تستطيع فعل شيء .. لقد أحببتها من فؤادك حتى هِمتَ بها .. فعلتَ ما بوسعك و أجزمُ أنّكَ تأثرتَ كثيراً بوفاتها .. هي الآن مرتاحة و ليس لديها هموم و لا أحزان و لا أمراض .. عليك أن تسعد لها.. هل كانت ستقبل أن تراك حزيناً لهذه الدرجة أم أنها ستتضايق ؟

و أردفتْ قائلة

_ ثم إنكَ طيّب القلب و جميل الروح .. ناتان أنتَ لستَ سيئاً ..

التفت بوجهه إليها و تمعّن وجهها و فكّر في نفسه

كانت هذه المرة الأولى التي أراها بهذا الجمال .. هذه المرة الأولى التي ألحظ جمال عينيها و حنان ابتسامتها .. صوتها كان أقرب إلى لحنٍ يملئه الحب .. شعرتُ بدقّات قلبي تتزايد و أنفاسي بدأتْ تتسارع ... شردتُ أتمعنُ وجهها .. ثم أدركتُ أمراً ... انتظر ، هل أنا أحبُّها **!!**

٦

لن تستطيع أن تُحارب قبح العالم ، دون أن تتلوّث منه بشيء..!!

_فيودور دوستويفسكي

طُرِقَ البابُ عدة طرقات .. نهضت كريستينا و فتحته ، فقالت بصوتٍ مسموع

_ أوه ديفيد ، ادخل

دخل ديفيد و في يده كيسَيْن أبيضين

_ ما هذا الذي في يدك يا ديف

_ لقد أحضرت الغداء

وضع الأكياس على الطاولة و قال بينما يهمّ بالجلوس على أحد الكراسي

_ هيّا .. تعالوا فأنا جائع

ساعدتْ كريستينا ناتان على النهوض .. الوقوف .. و المشي إلى الكراسي

جلس ناتان و أمامه ديفيد و جلست بجانبه كريستينا

في هذه اللحظة .. كان هنالك حريق يشتعل في جوف ناتان عندما رأى كريستينا تجلس بجانب ديفيد .. مدَّت يدها لتفتح الأكياس و مدّ في نفس اللحظة ديف يده فتلامستْ الأيدي ، أشاح ناتان بنظره بعيداً لأنه لم يستطع أن ينظر أكثر لهذه المهزلة التي تحصل أمامه ، وُضعَ الطعام أمامه و بدأ يأكل محاولاً تجاهل غيرته .. همهم في نفسه : ما الذي يحدث . لماذا أنا منزعج من اقترابها منه ، هل أنا حقاً جاد بـحبها !!! .. بدأتْ دموعٌ تترقرق في عينيه .. و أكمل حديث نفسه : لماذا فعلتَ هذه الفعلة يا فؤادي ، أنتَ تحب جيسي فقط و لن تحبَّ غيرها .. ماذا دهاك ! ألا تذكر أيها المخبول لقد وعدتَ حبيبتك ألّا تحبّ غيرها مهما حدث .. ما بالك ألا تذكر ؟! سقطتْ دمعة من عينه على الطاولة ، نظر ديفيد إليه و قد لاحظ وجهه الشارد الحزين

_ ناتان .. هل هنالك خطب ؟

استفاق من شروده و رد قائلاً :

_ لا . لا ليس هنالك شيء

وقف و استند و هو يمشي بيده على الطاولة و جلس على سريره .

في الليل .. كان الألم يحطّم ناتان ، بدا كالجثة دون روح .. قلبه يُعذّبه ..

_ هذا القلب لو أستطيع فقط أن أقتلعه من جذوره

كان معه حق في هذه الجملة .. فإن القلب له ميزة جميلة واحدة فإن اختفت يجب على القلب أن يختفي .. ألا وهي الحب .. و أقصد تحديداً الحب الأول ، لا تُسئ قصدي فأنا لا أقصد الحب الذي في بالك (حب التسلية و اللهو و مضيعة الوقت .. حب المراهقين الطائشين الذين أخذوا حبهم هذا من الأفلام و المسلسلات لا أكثر و لا أقل)

أنا أقصد بكلمة « حب » الحب الذي لا يستطيع فيه الإنسان التخلي عن محبوبه بأيّ شكل من الأشكال .. الحب الذي لا يُميته وقتٌ و لا عمر .. يكبر معك و يشيخُ معك .. و يموت معك .. يتمدد و ينتشر في أنحاء جسمك بدءاً من قلبك حتى شرايينك و أوردتك و أوعيتكَ الدموية و كبدك و عقلك و حتى أنفك و معدتك أيضاً . نعم أنا لا أمزح .. فهذا الحب يمتد لدرجة أن يصبح أنفك يعشق رائحة المحبوب و المعدة تجوع لشيء من فمه .. و الثغر يظمأ أشد الظمأ متمنياً قطرة من لُعابه .. قد تراها أموراً مقرفة و لكن صديقك العاشق يظنُّ أن لُعاب معشوقه قد صُنع من العسل .. أو أنه العسل ذاته .. فهاكَ المتنبي قد قال عند فراق عشيقته :

قَبَّلتُها وَدُموعي مَزجُ أَدمُعِها

وَقَبَّلَتني عَلى خَوفٍ فَماً لِفَمِ

فَذُقتُ ماءَ حَياةٍ مِن مُقَبِّلِها

لَو صابَ تُرباً لَأَحيا سالِفَ الأُمَمِ

هذا الحب يزداد و يكبر معك .. حب .. عشق .. هُيام .. جنون

بالفعل تُصبح مجنوناً بعد سنين ، تُصبح مهووساً بأدقِّ تفاصيله .. أصابع يديه .. ثيابه .. أبسط حركاته .. طريقة مشيه .. كلامه .. حروفه .. صوته .. ضحكته .. صراخه .. ستتمنى تقبيله ليل نهار .. و ليس تقبيل فمه فقط بل تقبيله كاملاً من رأسه حتى أخمص قدميه .. لن تتقزز من شيء فيه .. فهو بالنسبة لعينيك شيء طاهر مُطهر و صالحٌ للتقبيل و للأكل في أيّ وقت .. لا تستغرب إن رأيت حبيبة تعضُّ حبيبها أو حبيباً يعضُّ حبيبته ، فهما بالفعل يحاولان أكل بعضهما و لو استطاعا لـفعلا .. ستبدأ في رؤية معشوقك على أنّه أجمل و أكمل شخص في البلدة و المدينة و الدولة و العالم و الكواكب و المجرات و الكون بكامله .. بالطبع هو ليس كذلك و غيركَ يراه إنساناً طبيعياً و قد يراه قبيحاً أيضاً و قد لا ينظر إليه حتى

و لكن هو في عينيك كائن اسطوري .. لا يراه على هذه الهيئة أحد في الكون غيرك و هذا تفسيره بسيط جداً

فقد تعلمنا منذ صغرنا أن الإنسان يُحبُّ الشخص لجماله و وسامته .. و أن القلب هو مَن يتولى هذه المهمة و لكن هذا كلامٌ خاطئٌ بأسره

فالحقيقة هي أنَّ الروح هي التي تُحبّ و تتولى بداية هذه المهمة و ليس القلب .. إنما القلب دوره ثانوي أمام دور الروح .. و روح الإنسان لا تنجذب للشخص الجميل فقط و إنما تنجذب للروح و ليس للشخص .. فإذا ما وجدتْ روحاً تُناسبها و تُكمّلها فإنها تحبّها و الأمر ذاته مع الروح المقابلة (إذا كانت الروح الأولى مناسبة لها بالطبع) فتهوى الأرواح بعضها البعض و عندما تمتلئ بالعشق تبدأ المرحلة الثانية و هي مرحلة استعمار الهوى للجسد

فيُأثّر عشق الروح على القلب و يبدأ القلب بالشعور بهذا الإحساس الذي يجعله ينبض بسرعة عند رؤية محبوبه و من ثم يُكمل القلب ما بَدَأتهُ الروح فينشر الحب في أجزاء الجسم حتى يجري مع الدم

و هنا سأعلل لك سبب رؤية العاشق معشوقه على أنه ملاك مُجمّل .. و هذا ببساطة شديدة لأن القلب يُؤثّر بدوره على العين فيُجمّل لها المحبوب بصفاته الجسدية و الأخلاقية.. فتبدأ العين برؤية جماله على حسب درجة حبّ الروح و القلب له .

قلتُ في البداية بأن الحب الحقيقي هو الحب (الأول)

و كنتُ أعني بالحب الأول بالحب الذي يتّسم بالصفات التي ذكرتها مسبقاً ، فإن كنتَ قد أحببت ألف مرة حبّاً صبيانياً فعندما يأتيك حبك الحقيقي سيُسمى الحب الأول لأنه أول عشق حقيقي لك

... و من جهة أخرى أرى أن الحب الأول و الذي يبدأ منذ الصغر هو حب من المستحيل أن يأتي مثله في حياة الإنسان القادمة .. هذا الحب يكون مختلفاً .. الحب الأول بالفعل شيء لا يمكن وصفه .. إنني أحسدُ أشد الحسد مَن تزوج حبّه الأول و حظي به قبل أن يفنى

و أتمنى أن يُكرمني ربّي بهذا الإكرام و بهذه النعمة العظيمة .. نصيحة مباشرة من الكاتب لك { تزوّج مَن تُحب و ليس مَن يُحب الأهل أو المجتمع.. و لا سيما إن كان حبّك الأول .. حافظ عليه يا عزيزي المراهق و إياك ثم إياك خسرانه .. مهما فعل و مهما ارتكب أخطاء لا تُغتفر سامحه و تجاهل أخطاءه .. صدقني إن حافظتَ عليه بكل سوءه و أخطاءه ستنال لحظات و كنزاً و إحساساً كنت لن تناله من قبل }

و أتفقّ جداً مع أبي تمام عندما قال :

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى

ما الحُبُّ إلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ

كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَألَفُهُ الفَتى

وَحَنينُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنزِلِ

غطَّ ناتان نائماً بعد ليلٍ غارقٍ بالدموع

في منتصف الليل .. حين أنذرت الساعات بولوجنا هذا الوقت تردد صوت يهمس في مسمع ناتان :

_ ناتان ناتان

رد بصوت يتأرجح النوم بين قسماته :

_ ماذا .. من أنت

_ أنا ديفيد

_ لماذا توقظني من النوم

_ لديَّ لكَ أخبار سارّة

قال ناتان و هو يفرك عينيه من أثر النوم :

_ انتظر كيف دخلت إلى هنا

_ ما بالك ألا تتذكر أنك أعطيتني نسخة من مفاتيح شقتك

_نعم نعم لقد تذكرت .. هيّا تكلّم و كفاكَ تباطئاً

_ حسنا حسنا ... اليوم خرجنا من عندك أنا و كريستينا و من ثم اقترحتُ عليها أن أريها منزلي و بعد أن أخذتها بجولة في منزلي تبادلنا أطراف الحديث

و شعرتُ حينها أنها معجبة بي

اعتدل ناتان بجلسته بسرعة و حدَّقَ بديفيد هنيهة و قال بنبرة غمّ و حزن :

_ قم و صبَّ لي كأساً من الخمر

رد ديف بنبرة متحمسة :

_ نعم هذا هو ما نريد الآن

دلف إلى المطبخ و جلب كأسين من الخمر و ناولَ صديقه كأساً و قال :

_ دعنا نثمل الليلة

أخذ ناتان الكأس و بدأ يشرب بنهم

قال ديفيد بعد ثوان :

_ كيف سأجعلها تتقرب منّي أكثر

لم يسمع إجابة من صديقه الذي بقيَ يشربُ شارداً ببعدٍ آخر

أردفَ بعدها :

_ لقد أُعجِبَتْ ببيتي كثيراً .. لا أستطيع أن أنسى نظرات الإعجاب التي ارتسمتْ على محيّاها

لا أعلم كيف منعتُ نفسي عن معانقتها .. أتمنى أن أستطيع تأمُّل تلك العينين لبقية حياتي .. أتمنى لو أنفردُ بها وحدي فقط .. إنها ملكي

شدَّ ناتان على كأسه بعد أن تأثّر غضباً و غيرةً من كلام صديقه و لكنه بقيَ صامتاً و لم ينظر إليه

_ عاجلاً أم آجلاً ستكون بين ذراعيّ هاتين

نظرَ ناتان إليه بعينين محمرّتين و ضرب كأسَ شرابه بالأرض و صرخ فيه مزمجراً :

_ مَن قال لك أن توقظني في منتصف الليل لتسمعني هذا الكلام

قال ديفيد متفاجئاً من ردة فعله :

_ و لكن .. أنا لم أقصد إزعـ

قاطعه ناتان صارخاً :

_ اتركني و اخرج من منزلي

تصلّب ديفيد في مكانه مصدوماً

زمجرَ مرة ثانية بصوت أعلى

_ اخرج

هرع مسرعاً و اتجه نحو الباب و خرج غير فاهم ردة فعله هذه

نهض ناتان و اتجه نحو طاولة كانت مستندة إلى الحائط و ضرب جميع الأواني الزجاجية التي كانت عليها و حطمها

أخذ مضرب البيسبول المرمي على الأرضية و حطم كل ما ظهر أمامه

بعد نوبة تحطيمه هدأ قليلاً

و وقف وسط هيجان مشاعره .. وسط رعشة ذكرياته و محيطه البائس

_ لماذا أعيش أنا ؟

رددها في نفسه عدة مرات .. نظرَ إلى غرفته المظلمة التي يُنيرها بصيص ضوء القمر المتسلل من النافذة .. و الأغراض المحطمة مع شظايا الزجاج المتناثرة هنا و هناك .. لم يفهم لماذا يعيش حياته هذه المبتورة من كل معاني السعادة

تمنّى لو يستطيع الموت الآن .. أن تغادر روحه هذا الواقع البائس .. أن يطير بعيداً بين النجوم و يحدّث القمر عن محن حياته التي عاشها هناك .. أو ربما يتحول إلى نجمة .. كوكب .. قمر أو شمس .. أو حتى صخرة متفحّمة

هل فكّرتَ يوماً عن القمر و هذه النجوم النيّرات من أين جاءت ؟

ربما كانت بشراً مثلاً و تحوّلت إلى حجارة أو غازات مضيئة

ربما كان القمر رجلاً يُحبُّ امرأةً اسمها (شمس) و لكن القدر فرقهما و اسودّتْ حياته و راح مدمناً على القِمار .. لهذا سُمّي بعد أن قرر العيش في السماء بـ(ـالقمر) .. و ربما كان العُطارد و الزهرة واقعين في الحب .. و لكن لم يكونا مُقدَّرين لبعضهما .. فانتحرا و صعدا للدوران في السماء إلى جانب بعضهما البعض حتى لا يفترقا إلى فناء الكون

.. جلس على الأرضية و تكوَّر على نفسه

و راح يُواجه مخاوفه

" الشتاء بارد على من لا يملكون الذكريات الدافئة، لكنّني أظنّه أبرد على من يمتلكونَها، دون أصحابها "

_ فيودور دوستويفسكي

استيقظَ ناتان على صوتِ السماء تزمجر برعدها و على صوت نقرات الأمطار الغزيرة .. كان منسدحاً على الأرض و من حوله فوضى تعمُّ الغرفة .. جلس و هو ينظر إلى يديه المخدوشتين من الزجاج المحطّم .. و إلى دمه الذي بَهُتَ لونه جامداً عليهما .. ثم إلى السماء التي تتوسط النافذة .. كان الجوُّ كئيباً إلى أبعد درجة .. السماء كانت متكدسة بالغيوم السوداء و الرعد يكاد لا يتوقف.. المطر يتسابق فيما بينه متسارعاً .. أحسَّ بالعاطفة الرمادية .. و ما العاطفة الرمادية ؟؟ ... هي أن تنام بأسوء حالة و أسوء مشاعر ثم تستيقظ لتجد أسوء طقس و أسوء واقع.. حينها ستشعر أن كل شيء أصبح رمادياً .. داخلك.. مشاعرك .. جلدك .. بيتك .. أثاثك .. كل شيء أمامك مكتأب أو يشجعك على الاكتئآب

كانت الغرفة شبه معتمة مع أننا في وضح النهار .. وقف ببطء و نظر إلى صورة جيسي الموضوعة جانب السرير .. نظر إلى تلك الابتسامة التي دائماً ما أسرت فؤاده .. دوى صوت الرعد مرة أخرى .. و ضرب ضوءه الصورة لأجزاء من الثانية..

_ أنا حقاً لا أفهم .. مالذي يحدث .. هل ذلك الإحساس يعني أني أحببت كريستينا ؟ .. لماذا أشعر بالضيق عندما تجلس بجانب ديفيد أو عندما يتحدث عنها .. لقد كانت الحكاية منذ البداية حكايته هو .. هذه الحكاية التي سيرويها لأولاده بعد أن يتزوجها ..انتظر . مالذي أتفوّه به !! .. هذا لن يحصل .. أنا الذي أحب كريستينا.

ثم قال بعد برهة :

و لكنّي وعدتُ حسنائي .. حبيبتي الأبدية .. زوجتي المسروقة مني .. أني لن أحبّ غيرها حتى مماتي .. لقد وعدتُ جيسي بذلك .. لماذا يحدث هذا معي !! .. لماذا تختارني الحياة لتوقع بؤسها أقساه عليّ .. لماذا أنا ؟

كان ناتان في العمل عندما اتصل به ديفيد

_ ديفيد ؟ لماذا لم تأتِ اليوم

_ لقد فكّرت طوال الليل .. اليوم يجب أن أعترف لها

تجمّد ناتان في مكانه و ساد الصمت لبرهة .. ثم قال :

_ حسناً ..دع الأمر لي

ردّ ديفيد فرحاً :

_ حقاً ؟؟.. هل ستخبرها نيابة عني ؟ .. إذاً استمع إلي .. إن شعرتَ أنها موافقة على حبي و راضية عني قل لها أني أنتظرها الليلة في بيتي على تمام الساعة الثانية عشر

أومأ ناتان رأسه بهدوء و صمت

_ الو .. أين ذهبت

ثم تذكر أن رفيقه لا يراه :

_ نعم نعم .. كما تريد

أغلق الاتصال و جلس على كرسيه شارداً

خسرتُ جيسي بعد أن أحببتها ذلك اليوم .. هل سأخسر كريستينا اليوم أيضاً ؟

ثانية

اثنتين

ثلاثة

_ لا لن أسمح بذلك

انتفض من مجلسه و انطلق نحو الباب و منه إلى المصعد ثم إلى باب الشركة الرئيسي .. صعد إلى سيارته و أدار المقود

قال و عينيه يتطاير منهما شرارات الغضب

_ لن أسمح بذلك حتى لو اضطررت للقتل

عبر الطريق السريع و تهور بالقيادة كثيراً ثم وصل إلى مستشفى سانت دويل

ترجّل من السيارة و دلف المشفى .. وجد كريستينا تحادث شخصاً يبدو عليه المرض

راح مُسرعاً في خطواته كالمجنون و جذبها من يدها و قال لها

_ تعالي معي

جرّها وراءه و هي تهمس له متذمرة

_ ماذا حصل لك .. هل هناك خطب .. ناتان اسمعني ، الجميع يحدّق بنا

خرجا من المشفى و وصلا إلى السيارة

قال بلهجة حازمة

_ هيا اركبي

حدّقت به لثوان .. بعد أن ركب السيارة و هو شارد الذهن .. فقالت لنفسها (ليس باليد حيلة) و صعدت السيارة

انطلق ناتان بسرعة إلى مدينة الملاهي

قالت كريستينا مدهوشة و هي تغلق باب السيارة

_ هل أنت مجنون !! .. جلبتني معك بهذه الطريقة لكي نأتي إلى هنا ؟؟

رد عليها :

_ اليوم يجب أن يكون لنا فقط

_ إذاً دعنا نتصل بديفيد أيضا

_ لا .. اليوم لديه عمل

_ و لكن لماذا أنت ليـ

قاطعها و هو يمسك يدها و يسحبها معه قائلاً :

_ ما رأيكِ أن نجرّب هذه اللعبة

بَدَت معالم الخوف على وجهها :

_ و لكنّي أخاف من هذه اللعبة منذ كنت في العاشرة

_ إذاً دعينا اليوم نقضي على خوفك هذا

شدها من يدها و دخلا لعبة قطار الخوف

استقبلهما رجل بقناع هيكل عظمي و قال لهما :

_ رجاءً اجلسا هنا

فعلا كما قال و احتلّا مكانهما في القطار

بعد ثوان

صدر صوتٌ من الغرفة و بدأ القطار يتحرك

_ نا .. ناتان

_ ماذا

قالت و صوتها يتقطع رعباً

_ النفق أصبح مظلماً

_ بالطبع .. الظلام جزء أساسي من هذه اللعبـ

لم يكد أن يكمل جملته حتى صرختْ و هي تمسك برقبته و تنظر إلى جانبهم

_ هذا تمثال مهرج .. لا شيء يدعو للخوف

_ و لكنه قفز في وجهي فجأة

_ إذاً ما رأيكِ أن نحـ

_ عاااااااااااا

صرخت مرة أخرى و لكن هذه المرة قفزت إلى حضنه و هي تحيط يدها حول رقبته

نظر إليها وسط النفق الذي يدخله شعاع ضوء بسيط

كانت تنقل بصرها يميناً و شمالاً خائفة .. لم يكن خائفاً أبداً ، فهناك مخلوق كامل الأنوثة و عذبُ الصفات يجلس أمامه .. كان بريق الحب يشعُ من عينيه و هو يتأملها

التفتت إليه و هي تقطب حاجبيها :

_ أشعر أن هناك شيء سيقفز مرة أخرى

و ما أن أكملت دورة رأسها حتى التقت عيونها بعينيه .. نظرت إليه متصلبة مكانها ، كانت تتفحص ذلك الوجه المائل إلى البياض بعينيه السوداء و رموشه التي تكاد تسمّى طويلة و نظرته المشدوهة إليها .. لم تعلم في البداية مالذي يجري ، و لكنها لا إرادياً بدأت تقرّب وجهها إليه .. أو فمها بمعنى أدق ، لم يصدّق ناتان عينيه ، ظن في البداية أنه يتوهم اقترابها منه و لكن تلك القبلة بَدَت حقيقية تماماً .. و في بداية اللحظة بعد ثوان معدودة ضرب الضوء الفاضح مشهدهما وسط نظرات حشد من الناس

توتر ناتان خجلاً بينما جيسي تنهض من حضنه و هو يتمتم

_ لقد خرج القطار من اللعبة

كان أعين الناس تتوق للحظات مثل تلك .. فمنهم من كان يضحك خبثاً .. و آخر كان يشعر بالغيرة ، و بعض العجائز يتمتون :

_ أتذكر أني عشت لحظة تشبه تلك

_ اااه .. هذه أيامهم

_ يال طيش المراهقين

_ لحظات حبٍّ تذوقتُها في شبابي

_ ليت تلك الأيام تعود أدراجها

مشت كريستينا و ناتان بخطوات متسارعة و جلسا على إحدى المقاعد

_ لقد .. لقد تفاجأتُ عندما رأيتُ الجميع يُحدّق بي

رد ناتان مع ابتسامة هادئة على وجهه :

_ و لكن .. كانت اللحظة جميلة

التفتتْ إليه و قالت بعد برهة من الزمن :

_ هل أحببت من قبل

نظر ناتان إلى الأرض :

_ .. نعم .. مرة واحدة

_ هل انفصلتما إذاً ؟

_ لا .. لقد رحلت

_ إلى أين ؟

_ إلى السماء

قالت كريستينا مميلة برأسها قليلاً :

_ انتظر أنتَ أخبرتني عن هذا الأمر عندما كنت في بيتك

ساد صمت قاتل لبضع لحظات و قالت و هي تضع يدها على ظهره :

_ أوه أيها المسكين .. أنا آسفة لقد نسيت

_ لا بأس . لا تأسفي .. الكثير تأسفوا لي و لكن هذا لم يحييها

تأمّلت وجهه الحزين الشاحب و أمسكت يده و قالت و هي تنهض :

_ هيا بنا .. دعنا نجرّب شيئاً آخر

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه و نهض معها و تبعها .. اتجهت إلى العجلة الدوارة ، صعدا سوية و جلسا أمام بعضهما البعض ..

قالت كريستينا مستفهمة :

_ هل تخاف المرتفعات

أطرق ناتان مفكراً و قال :

_ لا .. لا أخافها ، لقد اعتدتُ في صغري الذهاب مع أبي لتسلق الجبال

_ أنا لم أتسلق جبلاً في حياتي .. و لم أصعد مرتفعاً شاهقاً و لكنني الآن عندما أنظر من هنا أشعر برعشة تنمُّ عن خوف

ضحك بهدوء :

_ هذا طبيعي جداً .. يحدث مع جميع الناس عند اعتلاء أيّ مرتفع

نظرتْ إليه قليلاً و قالت بنبرة متسائلة :

_ إلى الآن لم أفهم .. لماذا جئت بنا إلى هنا و لم تنتظر حتى ينتهي وقت عملي .. و لمَ نتصل بـديفيـ

قاطعها بـحدّة :

_ ليس عليكِ أن تعرفي دائماً كل شيء .. هناك أمور في الحياة تبقى غامضة

هزَّت رأسها ببطء مع أنها لم تفهم أيضاً

و وسط لحظات صمتهم صدر صوتٌ من مقطورتهم ..

_ ما هذا الصوت ؟

_ لا أدري .. لعله الهواء ، فالطقس عاصفٌ اليوم

فتحت كريستينا فمها لترد و إذا المقطورة بدأت تميل بها .. بدأت بالصراخ برعب . انتفض ناتان و أمسك بيدها و جذبها إليه بقوة .. كان مسمار من مسامير المقطورة قد سقط فمالت المقطورة بشكل مبالغ حتى أن كريستينا كادت أن تقع

لازالت المقطورة مائلة .. جنبها الأيمن أعلى من الأيسر ، كان ناتان يقف و يديه تمسكان خصرَ كريستينا الملتصقة بجسده ، كانت العينان تلتمعان .. و الأفئدة تخفق .. و الشفاه تتداخل ..

لم يعلم ناتان ماهيّة علاقتهما . قبل قليل تبادلا القُبل و الآن ها هي تلثمه ، هل هي تحبه أم تستغل الفرص لعيش لحظات جميلة في سنين شبابها .. ثم انتقل لفكرة أخرى: ماذا لو رآهم ديفيد و هما على هذه الحال.. هل سيتّهم ناتان بخيانة الصداقة أم سيقول أنه لا يمكن الوثوق به ، في الحقيقة لا

يمكنني و لا يمكنك تحديد المخطئ في هذه القصة .. شاب أحب فتاة فطلب من صديقه مساعدته .. فأحبها صديقه .. مالذي يحصل ؟ .. كيف من المفترض أن تنتهي هذه القصة ! . نحن للأسف لسنا في رواية لأحمد خالد توفيق حتى نأتيك بحلٍ لا يتوقعه إنس و لا جان .. و لا في رواية لغيوم ميسّو حتى نجوّع فضولك ، لا مشكلة.. سترى الحل في النهاية .. استمر

وصلَ فريق الإنقاذ و قاموا بإنزالهم

قالت كريستينا بينما كانت تمشي بجانب ناتان إلى المنزل تحت ظلمة السماء

_ اليوم كدتُ أموت مرتين .. مرة فزعاً في قطار الرعب و مرة سقوطاً في العجلة الدوّارة

نظر ناتان للسماء و قال :

_ يبدو أنها ستمطر

_ نعم يبدو أنها كذلك .. لماذا تركت سيارتك هناك و لم نصعد بها

_ أحببتُ أن أمشي اليوم

قال كلماته و من ثم أخرجَ ظرفاً أبيضاً من جيبه بيد متوترة قلقة و قال لها بعد تردد واضح :

_ هذه رسالة منّي إليكِ ، أتمنى أن تقرأيها بعد أن أرحل

أخذتْها من يده و تسائلت :

_ و لكن . لمَ رسالة ؟.. قل ما عندك هنا فإنكَ أمامي الآن

_ لا بأس .. أفضّلُ هذه الطريقة ، و لكن أريدكِ أن تأكّدي لي أنكِ بعد قراءتها ستذهبين لمكان من الأماكن المذكورة بداخلها

لم تفهم مغزى هذه الرسالة و لا مغزى الكلام

فأعاد جملته مؤكّداً عليها

فقالت :

_ حسناً كما تريد .. أعدكَ .. لن أعود للمنزل و سأذهب لإحدى تلك الأماكن

٨

يا بنيّ .. عندما ترى مآسي الآخرين وانكسارهم إياكَ أن تبتسم ، تأدب في حضرة الجرح ، كن إنساناً أو مت و أنت تحاول

_ ليو تولستوي

سار ناتان مبتعداً عنها ... الآن فضولك يقتلك أليس صحيح ؟ حسناً لا تقلق سأعطيك مضمون الرسالة.. هذه الرسالة كتبها ناتان قبل أن يدخل المشفى :

أحياناً .. أحياناً هناك أمور لا نستطيع اتخاذ قرار صائب فيها .. ربما نحن مخيّرون بأمور و مجبورون على أخرى ، لم أفهم طوال سنيني التي عشتها بعد لمَ حدثت وفاة جيسي .. لمَ كان يجب أن يحصل هذا الحادث ؟ .. ما الشيء الإيجابي الذي نتج عنه .. أين الخطأ في زواجي منها ؟ .. هل حقاً هناك بشرٌ يُخلقون فقط للعذاب . لماذا لا أجد أحداً سعيداً طوال حياته ، كل ما أراه أمامي يومياً هو البائسين و المشرّدين و الهائمين بحسناوات من طرف واحد .. كل ما أسمعه هو الشكاوى .. الفقر .. الظلم.. الحب.. الكره.. الموت.. الحنين .. الشوق

إلى متى ؟ .. لطالما تساءلتُ هل سأكون سعيداً يوماً من الأيام ؟ .. هل سأعيش مع الفتاة التي أعشقها .. هل سأكون مرتاحاً مادياً و نفسياً ؟ ، و لكن الإجابة دائماً هي (لا) .. حسناً بما أنني الآن أكتب هذه الرسالة.. فأنا أتوقع الأسوء .. لن أنال ما أريد .. لن أحقق ما أريد .. كريستينا . منذ عرفتكِ لاحظتُ ذلك الجمال في عينيكِ .. ذلك الحنان الذي يقتر من يديكِ .. تلك الابتسامة التي يهوي قلبي من سحرها .. حسناً سأقولها بكل وضوح ، أنا أحبُّكِ يا كريستينا.. لا بل أنا أعشقكِ ، أهيمُ بتلك النظرة البريئة التي تنظرين بها ، أعشق رائحة عطرك التي تفوح من رقبتكِ البيضاء .. تلك الرائحة الممتزجة برائحة عَرَقٍ مسكيّ .. عرقٌ من نوع خاص ساحر الرائحة .. هل تعلمين ؟ .. تعلمين مقدار حبّي لتلك الخصلة التي تنسدل من غرّة رأسكِ و تتوسط محيّاك .. تلك التي تعانق أنفكِ .. فمكِ .. و عينكِ .. أعشقُ عينيك بنيّة اللون . تلك العيون التي عندما يتهادى ضوء الشمس إليها تُشعل بريقاً عسلياً يُذيب روحي .. آهٍ ما أجمل ذلك البريق .. ما ألذّ ذلك الذوبان .. و تلك القامة التي تقصريني بها بـ 30 سنتي .. ليتكِ تحسّين بخفقات قلبي عندما تقفين أمامي بذلك الطول.. عشقتُ في اسمك حرف السين .. عشقتُ ذلك السكون الذي يحتلّ لساني و ذلك اللقاء بين اسناني عند نطقه .. و تلك الشفاه.. و آهٍ من تلك الشفاه المصبوغة بالوردي دون تدخّل أحمر شفاه .. حفظتُ كل

تفصيلة بها .. حين تبتسم.. تحزن.. تقلق و تبكي و تنصدم و تضحك.. كريستينا لقد عشقتك في كل نبضة و كل حرف و نقطة .. و لكـــــن !! .. عليكِ الاختيار .. الاختيار في ماذا ؟ .. لا بأس اسمعي التالي :

عليكِ الاختيار بين أن تأتي لمنزلي في الساعة الثانية عشر من ليل هذا اليوم .. أو أن تذهبي لبيت ديفيد في هذه الساعة أيضاً . نعم أعلم ربما تفاجئتي و لكن ديفيد أيضاً يحبّكِ ، بل و قد أحبَّكِ قبلي و أرسلني لأجعلكِ تقعين في حبه ، لقد كان حبّكِ الأول منذ البداية .. هذه الحقيقة . عليكِ الاختيار .. أنا أم هو .. حبّي أم حبّه ، و يالَ حظ مَن ستختارين منّا .. يالَ سعادة مَن سيشاركِ ليلته .. و يالَ بؤس ذلك المسكين المهموم .. يالَ حزنه حين يمضي ليلته وحيداً .. يالَ حظه الميّت

أنا أعلم أني لست غنياً كديفيد .. و لست وسيماً مثله .. و لكنّني على الأقل ... لستُ سيئاً يا كريستينا

ناتان

تلك كانت رسالة ناتان .. يمكنك أن تراه الآن في منزله يجلس في غرفته المظلمة كالعادة .. التي يخترقها شعاع ضوء القمر الأزرق من النافذة . يجلس على الأريكة و أمامه طاولة عليها كأسيّ نبيذ .. ينظر إلى عقارب ساعة الحائط .. الحادية عشر و خمس و خمسون دقيقة .. الحادية عشر و ستٌ و خمسون دقيقة.. الحادية عشر و سبعٌ و خمسون دقيقة .. الحادية عشر و ثمانٌ و خمسون دقيقة .. الحادية عشر و تسعٌ و خمسون دقيقة .. الثانية عشر

بقيَ ساكناً .. هادءاً .. لم يتحرّك .. لربما ستأتي .. لربما .

الساعة الثانية عشر و ثلاثون دقيقة

لم تأتِ

أخذ كأس نبيذه و شرب منه عدة رشفات .. و أمسكَ أعصابه

الثانية عشر و أربعون دقيقة

لم تأتِ

نظر لكأسها لبرهة من الزمن .. و أخذه . و بدأ يتجرعه

الثانية عشر و خمسون دقيقة

لم تأتِ

أمسكَ كأسها و كسره أرضاً

لم تأتِ

وقف و قلب الطاولة بقوة

لم تأتِ

أخذ يحطّم خزانته الخشبية المليئة بالزجاج حتى أدمى يداه

لم تأتِ

أخرج هاتفه و رماه على التلفاز الذي تحطّم بمجرد أن توسّط شاشته

لم تأتِ

حملَ كرسياً و بدأ يضرب به الجدار و اللوحات و الأثاث حتى تكسَّر

لم تأتِ

هرعَ إلى الخزانة المحطّمة و أزاح شظايا الزجاج و بعض القطع الخشبية حتى أخرج حبلاً منها بعد أن سحبه بصعوبة

لم تأتِ

علّق الحبل في السقف و صنع عقدة في نهايته على شكل دائرة

لم تأتِ

صعدَ على الكرسي و أدخل رأسه في دائرة الحبل

لم تأتِ

نظرَ لصورة جيسي و قال (ها أنا آتيكِ) .. و دفع الكرسي بقدمه ليرتمي بعيداً عنه

لأنـها

« لـــم تـــــأتِ »

تـمَّـت